

**مؤتمر مكة المكرمة الثامن**  
**[الخطاب الإسلامي**  
**وإشكاليات العصر]**

٥-٧ ذي الحجة/١٤٢٨هـ  
١٥-١٧ ديسمبر/٢٠٠٧م

بحث بعنوان :

**[الخطاب الإسلامي – سماته وأهدافه]**

إعداد :

د. سعيد عبد الله حارب  
دولة الإمارات العربية المتحدة

## (ملخص بحث)

# الخطاب الإسلامي - سماته وأهدافه

د. سعيد عبد الله حارب

## المقدمة

يشكل الخطاب الإسلامي حضوراً واضحاً في الحياة العامة، سواءً كان ذلك في المجتمعات الإسلامية أم غيرها، فقد دفعت الأحداث التي مرّ بها العالم خلال العقود الأخيرة إلى الاهتمام بالحياة الإسلامية في شتى صورها العقديّة والسياسية والاجتماعية والثقافية غيرها، وعرضت جوانب الإسلام المختلفة للدراسة والتمحيص من مراكز البحث والدراسات في دول الغرب وغيرها، وبرز الخطاب الإسلامي كأبرز صورة معبرة عن الحالة الإسلامية، حيث كان لهذا الخطاب أثرٌ واضح بين المسلمين، تمثل في الشعور بالحاجة للبحث عن الهوية الإسلامية والتمسك بها في مواجهة التحديات التي تواجه المسلمين في الوقت المعاصر، كما تمثل في كثرة الكتابات والدراسات التي أبدعها العلماء والفقهاء والمفكرون المسلمون وغير المسلمين.

## مفهوم الخطاب:

إننا لا نستطيع أن نحدد مفهوماً واحداً لمصطلح الخطاب الإسلامي، لأن ذلك يختلف باختلاف رؤية الباحثين والدارسين لهذا النص، لكن يمكننا أن نعطي تعريفاً مختصراً له فالخطاب الإسلامي هو:

" ما يستنبطه الفقهاء والعلماء والمفكرون المسلمون من النصوص الشرعية

الثابتة أو اجتهاد الفقهاء وآراء المفكرين، ويتم التعبير عنه بوسائل الاتصال

المختلفة " ومن هنا فإن الخطاب الإسلامي ليس نصاً شرعياً بل هو رأي يعبر به

صاحبه عما فهمه من النصوص أو من آراء الآخرين أو من اجتهاده الشخصي، سواء

كان هذا الرأي يحمل حكماً شرعياً اجتهادياً أو رأياً فكرياً، ولذا يمكن مخالفة هذا

الاجتهاد أو الرأي بحجة أقوى منه أو رأي آخر.

## أولاً: سمات الخطاب الإسلامي :

### ١. المشروعية :

الخطاب الإسلامي يقوم على مبدأ المشروعية، أي أنه يقوم على مصادر مشروعة من الله سبحانه وتعالى ، وهي الكتاب والسنة مصدرين أصليين وما تفرع عنهما من مصادر أخرى وهي التي تسمى المصادر الفرعية.

وتأتي أهمية المشروعية للخطاب الإسلامي من موقع هذه الخطاب وتأثيره في حياة المسلم وتطبيق ما يدعو إليه في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته بالآخرين ، حيث أن هذا التطبيق يعبر عن شخصية المسلم والمجتمعات الإسلامية ، كما أنه يعبر عن استجابة المسلمين أفراداً ومجتمعات لأمر الله سبحانه وتعالى وتحكيمه في شؤونهم ، لكن بعض الدعوات التي يحملها الخطاب السائد في المجتمعات الإسلامية تنادي بخصر التطبيق الإسلامي في جوانب السلوكيات والأخلاق والعبادات وعزله عن التطبيقات الأخرى تشبيهاً بمجتمعات وشعوب ليس للدين أي دور في حياتها ، وفي هذا تعطيل لجانب من الإسلام ، كما أنه مسخ لشخصية الأفراد و المجتمعات الإسلامية التي تميزهم عن غيرهم من المجتمعات.

### ٢. الإيمانية :

إذا كانت المشروعية إحدى خصائص الخطاب الإسلامي فإن الإيمانية -أو الجانب الإيمانية- يعد من الخصائص التي تميز بها هذا الخطاب ، فهو خطاب يدعو للإيمان ويتأثر به، وعلى الرغم من أن الإيمان يعتبر عملية قلبية والخطاب عملية فكرية تطبيقية إلا أن للإيمان دورٌ مهمٌ فيه ، والجانب الإيمانية لا يتوقف دوره على التأثير في الخطاب الإسلامي ، وإنما يربطه بالجزاء سواء أكان هذا الجزاء دنيوياً أو أخروياً ، وهو جانب ينفرد به الخطاب الإسلامي عن بقية الخطابات السائدة الأخرى التي تربط الجزاء بما يلقاه الإنسان في حياته بينما يعتمد تأثير الإيمان في الإسلام إلى الجانب الجزائي في الدنيا أو الآخرة.

### ٣. العقيدة :

تعتبر العقيدة ضرورة فطرية للإنسان، فهو لا يستطيع أن يتعامل مع الكون من حوله إلا من خلال رؤية عقدية أياً كانت هذه الرؤية ودون الدخول في الحكم عليها بصلاحتها أو فسادها.

ويأتي الخطاب الإسلامي ليعبر عن العقيدة الإسلامية ، وينقل الإيمان بها من الجوانب النظرية إلى الجوانب التطبيقية فتتحول من مجرد إيمان ومبادئ إلى سلوك، وعمل، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أم المجتمع، كما أن العقيدة هي الإطار الحاكم لهذا الخطاب فلا يمكن له أن يخرج عن هذا الإطار الذي شرعه الله سبحانه وتعالى فهو بذلك خطاب عقدي .

### ٤. الإنسانية:

يتصف الخطاب الإسلامي بأنه إنساني النزعة، فهو ذو بعد إنساني كبير، خاطب فيه روحه وعقله وبجث قضايا ومشاكله النفسية والخلقية والسياسية والاجتماعية والتربوية.. وغير ذلك مما يواجه الإنسان في كل وقت ومكان، جاء ليعرض أمامه الحلول الناجحة وليخرجه من هذه المشكلات.

لقد بحثت كل النظريات والأفكار في تصورها للإنسان، فبين مطلق العنان ، جعل الإنسان محوراً لكل مظاهر الحياة، منه تبدأ وإليه تنتهي ، هو الهدف وهو الوسيلة . ومعطل للدور الذي يمكن أن يقوم به الإنسان في الحياة. وهكذا اختلفت التصورات للإنسان بين إفراط وتفريط، وجاء الإسلام بمنهجه المتوازن ليعطي الإنسان دوراً مهماً في الحياة يتناسب وإمكانياته وطاقاته التي وهبها الله له ، وفي نفس الوقت لا يتجاوز هذا الدور المرسوم له من خالقه ، وتمثل ذلك الدور في خلافة الإنسان في الأرض واستعمارها لها لتحقيق معنى وجوده في هذه الحياة وهو العبودية لله.

### ٥. الثبات:

فالخطاب الإسلامي يتميز دون غيره بصفة الثبات في القواعد والأصول، فمفاهيمه وتصورات ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، لأن الخطاب الإسلامي يستمد هذه المفاهيم والتصورات من مصدرين ثابتين هما كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وهذا الثبات في القواعد والأصول مع المرونة في الفهم والاستنباط جعل الخطاب الإسلامي يستمر في كل الظروف والأزمان على الرغم مما أصاب المسلمين من انتكاسات إلا أنه يحافظ على خصائصه ومميزاته، بل استطاع أن يواجه ما تطرحه الثقافات والتيارات الفكرية المتعددة، سواء كانت تلك الثقافات والتيارات الفكرية داخل المجتمع الإسلامي - لكنها منحرفة - أو تيارات فكرية خارجية مناقضة ومخالفة لمنهج الله.

## ٦. الواقعية:

الخطاب الإسلامي واقعي وليس خيالي أو مثالي - بمعنى النموذج المستحيل - فهو يعيش للواقع وإن كان يرمي إلى المثالية الممكنة حين يجعل من المبادئ والأهداف الكبيرة غايات يسعى لتحقيقها. وفي نفس الوقت لا يغفل الواقع الذي يعيشه الإنسان في ذاته وفي نظرتة للكون وتحديد دوره في الحياة.

وواقعية الخطاب الإسلامي لا تعني الخضوع للواقع وصياغة شؤون الحياة وفق هذا الواقع وتأثيراته والخضوع له، واعتباره المؤثر الوحيد في التصورات والأفكار، لكنها تعني الاهتمام بهذا الواقع بحيث يعمل على تأكيد الجيد والصالح مما في الواقع وتغيير السيئ والفاسد منه وفق منهج قويم هو المنهج الشرعي، وردّ كل ما في الواقع إلى هذا المنهج الشرعي.

## ثانياً أهداف الخطاب الإسلامي :

للخطاب الإسلامي أهداف عدة من أبرزها :

### ١ . الدعوة إلى الإسلام :

إن الدعوة من أهم أهداف الخطاب الإسلامي، فهي الوسيلة التنفيذية للعقيدة التي تحملها الأمة، لأن هذه العقيدة التي جاء بها الإسلام ليست عقيدة محصورة بزمن أو أرض أو جنس، بل هي للناس كافة، وحتى يتحقق هذا العموم كانت الدعوة هي الوسيلة لنشر هذه العقيدة وهذا المبدأ الذي نادى به الأنبياء السابقون وختمت بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومفهوم الدعوة في الخطاب الإسلامي يعطيه امتداداً في الزمان والمكان لأن الدعوة لا تتوقف عند حدود جغرافية بل هي لكل مكان، ولا تتوقف عند جنس فهي ليست للعرب، ولو كانت كذلك لتوقفت الدعوة منذ العهد النبوي، بل هي امتداد ينساب إلى كل مكان يقبل أن يتخذ الإسلام ديناً.

### ٢ . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من تمام واجبات الفرد والدولة المسلمة، والخطاب الإسلامي في حقيقته أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وهو يمثل أسلوباً متميزاً لمعالجة الأخطاء والتقصير الذي قد يلتمّ بالحياة الإسلامية أفراداً وجماعات، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقوم للنقد والهدم لما عند الآخرين أو لبيان نقائصهم وأخطائهم وعيوبهم، وإنما يقوم على تأكيد الجوانب الإيجابية والنهي عن الجوانب السلبية، ولذلك تتسع دائرته لتشمل السلطان أو الحاكم نفسه حيث يجب عليه ذلك، كما يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دائرة أوسع وهم العلماء، أي أهل الاختصاص، ثم بعد ذلك يشمل المسلمين عامة

### ٣ . نشر الأخلاق والفضائل :

يتصف الخطاب الإسلامي بأنه أخلاقي؛ لأنه يدعو إلى التربية الصالحة في محيط تتوفر له دعائم الخلق الحسن الذي يقوم على قواعد ثابتة من الدين والفضائل التي تعارفت عليها العقول السليمة، فإذا كانت الدعوة إلى الإسلام واجباً يقوم به

المسلمون ، والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر يتم داخل المجتمعات الإسلامية فإن الدعوة للمحافظة على الأخلاق هدف يلتقي فيه الخطاب الإسلامي مع غيره من الخطابات الأخرى .

إن الخطاب الإسلامي حين يعتني بالفضيلة ويجعلها إحدى أهدافه فإنما يضع قاعدة مهمة في حياة الشعوب وهي قيامها على مبدأ الخلق، إذ يعمل الخلق الحسن على إشاعة روح المحبة والألفة والمعاملة الحسنة بين أفراد المجتمع فينشأ سليماً معافى.

#### ٤. الشهود الحضاري :

الخطاب الإسلامي يؤسس لمكانة لا تفتقر بالحضارة الإسلامية التي بقيت مستعصية على الفناء أو الانهيار، من خلال قدرة الحضارة الإسلامية على المحافظة على مقومات النهوض و الاستمرار، ولعل كثير ممن يشدهم الواقع الذي يعيشه المسلمون يرون في ذلك شحطات "خيال" ، أو "لا واقعية" في التصور، لكن التاريخ علمنا أن هذه الحضارة قادرة على العودة إلى الصف الأول مع غيرها من الحضارات إن لم تكن في مقدمتهم، وقادرة على الإسهام مع غيرها في صنع حضارة إنسانية تحقق للإنسان مبتغاه من الحياة الكريمة، ولذا فإن ما يستقبل الأمة الإسلامية من إسهام حضاري ينطلق من تلك المقدمات و ذلك من خلال ما يمكن أن نصلح عليه بالشهود ، ولعل من الشهود الحضاري للأمة المسلمة هو المشاركة في صنع حضارة إنسانية معاصرة، فقد تعالت الصيحات الإنسانية محذرة من مآل البشرية في عالم يمجج بالماديات وتراجع فيه الروحيات يوماً بعد يوم مما ينعكس على حياة الإنسان ذاته ، ولذا فإن الأمة المسلمة تملك الأصل الثابت للحضارة وهو جانبها الروحي لكنها تفتقد إلى الجانب العلمي المادي ، وحين تعجز عن صنع حضارة خاصة بها فلا أقل من المشاركة مع الآخرين في صنع تلك الحضارة والعمل على إيجاد حضارة إنسانية معاصرة ومتوازنة.

#### ٥. تحرير المفاهيم الإسلامية :

لابد للخطاب الإسلامي من التعامل مع الأسس التي قامت كثير من المفاهيم و الأفكار و الدعوات السائدة بين المسلمين، سواء كانوا في بلادهم أم كانوا في المهجر،

إذ أن معظم هذه المفاهيم و الأفكار تزعم أنها تنطلق من تصور إسلامي، فكثير من البيانات وأدبيات الخطاب السائد بين المسلمين تستند إلى بعض النصوص الشرعية وبعض المواقف التاريخية التي توظفها لتبرير تصرفاتها وأعمالها، إلى جانب اعتمادها على فتاوى تصدر من بعض الباحثين في الأحكام الشرعية، وبعيداً عن مناقشة هذه الآراء فإن التعامل مع هذه الظاهرة يمتد ليعالج بعض الجوانب المهمة في المجتمعات العربية و الإسلامية.

ولعل من أبرز المفاهيم التي تحتاج إلى بيان وتحرير ، بعض المفاهيم الشرعية التي يتم عرضها بصورة غير صحيحة ، كمفهوم الجهاد و التكفير والولاء والبراء ، والعلاقة مع الآخر وغيرها من المفاهيم .

إن معالجة هذه الظاهرة و نزع المشروعية عن الأفكار الخاطئة السائدة هو أحد الأهداف التي يجب أن يعمل لها الخطاب الإسلامي، لكن تحقيق هذه الغاية يتطلب جهوداً واسعة تبدأ ببيان الأحكام الشرعية وآراء الفقهاء والمفكرين المسلمين المعاصرين، وتنتهي بتغيير تصورات المجتمعات ومؤسسات التأثير في الرأي العام كوسائل الإعلام والاتصال وغيرها حول هذه المفاهيم و الأفكار.

## ٦. التواصل مع الآخر:

يهدف الخطاب الإسلامي إلى التواصل مع الآخر، فالآخر يشكل حضوراً دائماً في حياة البشر، فمنذ بداية البشرية و اختلاف الناس في أديانهم و مذاهبهم و أفكارهم و أجناسهم و ألوانهم، تواصل بعضهم مع بعض، فاختلف التنوع طبيعة بشرية خلقها الله، و هي أمر حتمي لا يمكن تجاوزه أو تجاهله ، فقد ذكرت الآيات هذا الاختلاف في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ وقد شهدت السنوات الأخيرة أهمية الخطاب الإسلامي المتوازن في التواصل و الحوار مع الآخر بصورة واضحة جلية، مستفيدة من التواصل البشري الذي يسرته وسائل الاتصال و المعرفة و التقانة؛ حيث ازداد اهتمام العالم بدراسة الآخر سواء كان الآخر القريب أم البعيد، وسواء سادت العلاقة الجيدة معه أم ساءت هذه العلاقة، وقد ساعد على هذا الاهتمام تلك التحولات التي شهدتها العالم و مازال من خلال الأحداث التي مرت بها البشرية خلال العقدین الأخيرين،



## ٧. تأصيل المفاهيم الحديثة :

تشيع بين فترة و أخرى مفاهيم جديدة أو مفاهيم قديمة لكن يتم طرحها بصورة حديثة قد تتفق مع مضمونها القديم وقد تختلف عنه، وقد يراد لها أن تعطي دلالات جديدة يهدف مطلقوها إلى تحقيق أغراض خاصة، ولعل من أبرز المفاهيم التي يتم تداولها، التسامح والسلام والحرية والمساواة والمواطنة والعملة وغيرها من المصطلحات التي يكثر تداولها وتحتاج إلى دراسة وتمحيص وتفنييد، أو تأصيل وتأسيس، وهذا ما يقوم الخطاب الإسلامي به، حين يراجع هذه المفاهيم ويدرس مدى ملائمتها للمشروعية الإسلامية أو الفكر الإسلامي.

## النتائج والتوصيات:

١. بد من العناية بهذا الخطاب وتطويره من خلال الدراسات والبحوث بما يحقق الأهداف المرجوة منه.
٢. المرجعية الشرعية هي الأساس الذي يجب أن يقوم عليه الخطاب الإسلامي.
٣. لا بد أن يكون للعقيدة دور مؤثر في هذا الخطاب.
٤. بل لا بد من النظر إلى الخطاب الإسلامي باعتباره فكراً إنسانياً قابلاً للخطأ والإصابة ولذلك لا بد من مراجعته و تقويمه.
٥. تقتضي الواقعية أن يتعامل الخطاب الإسلامي مع الواقع بكل مكوناته، وأن لا يحمل المتلقي له إلى عالم المثاليات والكمال الذي لا يمكن تحقيقه.
٦. لا بد أن تكون الدعوة الإسلامية حاضرة في هذا الخطاب.
٧. يمكن للخطاب الإسلامي أن يقوم بدور كبير في ذلك ، وبأساليب تتناسب مع التطور الذي تشهده الحياة الإنسانية.
٨. الخطاب الإسلامي خطاب أخلاقي، يدعو للفضيلة والخير، ولذا فإن هدف المحافظة على الأخلاق ونشر الفضيلة يجب أن يأخذ مكاناً واضحاً في الخطاب الإسلامي.
٩. يمثل الدور المستقبلي للأمة حالة من الشهود الحضاري من خلال مشاركتها مع الآخرين في صنع الحضارة الإنسانية القائمة على العدل والحق والخير والفضيلة.
١٠. على الخطاب الإسلامي تحرير بعض المفاهيم الإسلامية مما لحق بها من تشويه لتأخذ دورها في بناء الإنسان المسلم.
١١. الخطاب الإسلامي هو الوسيلة المثلى للتواصل مع الآخر، من أجل التعريف بالإسلام ودفع الشبهات التي تلحق به، والتعاشير بين البشر وحل المشكلات المشتركة بينهم.

١٢. يمكن للخطاب الإسلامي أن يقوم بتأصيل المفاهيم الجديدة من خلال عرضها على الأحكام الشرعية وبيان قربها أو بعدها من الإسلام، وإمكانية الاستفادة منها.

# الخطاب الإسلامي سماته وأهدافه

**د. سعيد عبد الله حارب**  
**دولة الإمارات العربية المتحدة**

## المقدمة :

يشكل الخطاب الإسلامي حضوراً واضحاً في الحياة العامة، سواءً كان ذلك في المجتمعات الإسلامية أم غيرها، فقد دفعت الأحداث التي مرّ بها العالم خلال العقود الأخيرة إلى الاهتمام بالحياة الإسلامية في شتى صورها العقدية والسياسية والاجتماعية والثقافية غيرها، وعرضت جوانب الإسلام المختلفة للدراسة والتمحيص من مراكز البحث والدراسات في دول الغرب وغيرها، وبرز الخطاب الإسلامي كأبرز صورة معبرة عن الحالة الإسلامية، حيث كان لهذا الخطاب أثرٌ واضح بين المسلمين، تمثل في الشعور بالحاجة للبحث عن الهوية الإسلامية والتمسك بها في مواجهة التحديات التي تواجه المسلمين في الوقت المعاصر، كما تمثل في كثرة الكتابات والدراسات التي أبدعها العلماء والفقهاء والمفكرون المسلمون، حيث برز ذلك في ما سُمّي بـ "الظاهرة الإسلامية" التي شهدت عودة واضحة للتمسك بالدين على الرغم من كافة المعوقات والمغريات، بحيث أصبحت ظاهرة العودة للإسلام والتمسك به واضحة لكل مراقب ودارس. لكن هذه الظاهرة تعرضت للتشويه من خلال الانحراف الفكري الذي أصاب طائفة من أبناء المسلمين، حين نقلت هذه الظاهرة من حالتها الطبيعية إلى صورة من العنف والغلو والتشدد، ودفعت بالمسلمين إلى مواجهة داخلية وخارجية، وقد كان الخطاب الإسلامي هو المتّهم في ظهور هذه الحالة، ولم تكتف الحملات المعادية للإسلام بتشخيص الحالة وتفتيدها، ولكنها اتّجهت إلى وضع الإسلام - كدين - موضع الدراسة باعتباره المؤسس لهذه الحالة - كما يزعمون - فارتفع بذلك

خطاب عدائي للإسلام في كثير من مواقع التأثير والاتصال واتخاذ القرار في بعض بلدان العالم، وأصبح لزاماً على الخطاب الإسلامي أن يعيد النظر في مكوناته وأهدافه وغاياته من أجل مواكبة هذه التحديات الجديدة، والرد على الحملات المغرضة ضد الإسلام، كما أصبح لزاماً عليه - كذلك - تطوير أهدافه وفقاً لما يحتاجه العصر بحيث يصبح الخطاب الإسلامي معاصراً في رؤيته وأهدافه وغاياته .

فما هو الخطاب الإسلامي؟ وما هي سماته وأهدافه؟

## المفهوم:

الخطاب لفظ يدل على عدة معاني من أبرزها:

### ١. : المعنى اللغوي:

ويقصد به المعنى الواضح والبسيط الذي يفيد بأن كلمة الخطاب تدل على مراجعة الكلام، والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة<sup>١</sup>.

وقال الكرمي: "هو المخاطبة بين شخص وآخر، و الخطاب: ما يكلم به الرجل صاحبه"<sup>٢</sup> وقد ورد لفظ الخطاب في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، منها قوله تعالى: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ) سورة ص الآية ٢٠

ورد في تفسير ابن كثير: "أتيناه الحكمة، قال مجاهد يعني الفهم والعقل والفتنة، وقال مرة العدل، وقال مرة الصواب، وفصل الخطاب هو الفصل في الكلام وفي الحكم"<sup>٣</sup>. وقال القرطبي: "فصل الخطاب هو البيان الفاصل بين الحق والباطل، وقيل هو الإيجاز يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل"<sup>٤</sup>

وقال الطبري: "عن ابن عباس (وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب) قال: "أعطي الفهم"<sup>٥</sup> وجاء في تفسير الجلالين: "فصل الخطاب البيان الشافي في كل قصد"<sup>٦</sup>

<sup>١</sup> لسان العرب - ابن منظور ج ١ ص ٣٦٠.

<sup>٢</sup> الهادي في اللغة العربية - حسن سعيد الكرمي ص ٦٣٨ ج ١.

<sup>٣</sup> تفسير القرآن العظيم - ابن كثير.

<sup>٤</sup> تفسير القرطبي.

<sup>٥</sup> تفسير الطبري.

وقال النسفي: "الفصل هو التمييز بين الشيئين، وقيل للكلام البين فصل بمعنى الفصول، وفصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه"<sup>٦</sup> وقال صاحب روح البيان: "الحكمة هي أنواع المعارف من المواهب، وفصل الخطاب، بيان تلك المعارف بأول دليل"<sup>٧</sup>

وقال ابن عطية: "والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه إذا خاطب في نازلة فصل المعنى وأوضحه، لا يأخذه في ذلك حصر ولا ضعف"<sup>٨</sup>

وقد ورد لفظ الخطاب كذلك في قوله تعالى في قصة داود عليه السلام: "وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ" سورة ص - الآية ٢٣

وهي تفيد معنى الغلبة كما ذكر المفسرون؛ فقال ابن كثير: "وعزني في الخطاب، أي غلبني، يقال عزّ يعزّ إذا قهر وغلب"<sup>٩</sup>

وقال الطبري: "وعزني في الخطاب" "صار أعز مني في مخاطبته إياي، لأنه إن تكلم فهو أئين مني"<sup>١٠</sup>

وقال صاحب روح البيان: "أي غلبني في مخاطبته إياي محاجةً بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده، وعن ابن عباس رضي الله عنهما (قال): كان أعز مني وأقوى على

مخاطبتي لأنه كان الملك فالمعنى كان أقدر على الخطاب لعزة ملكه"<sup>١١</sup>

وورد لفظ الخطاب كذلك في قوله جل شأنه: " رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا " سورة النبأ - الآية ٣٧

---

<sup>6</sup> تفسير الجلالين .

<sup>7</sup> تفسير النسفي.

<sup>8</sup> روح البيان - اسماعيل حقي البرسوي، ج ٨ - ص ١٥.

<sup>9</sup> المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسي ج ١٢ ص ٤٣٤.

<sup>10</sup> تفسير ابن كثير.

<sup>11</sup> تفسير الطبري.

<sup>12</sup> روح البيان - للبرسوي، ج ٨ - ص ١٧.

ومقصودنا من معنى الخطاب هو ما ورد في الآية الأولى والذي يفيد الحكمة في القول والفعل بمعنى البيان والإيضاح والفهم للمقصود. والملاحظ أن لفظ الخطاب قد ورد في المواضع الثلاثة في القرآن الكريم مقترناً بالحكمة والبأس والشدة والعزة والفطنة، وفي ذلك دلالة على أن الخطاب إذا استعمل في موضعه الصحيح وفقاً للمنهج الذي أمر الله سبحانه وتعالى به مقترناً بالحكمة والفطنة والعقل والعدل، فإنه يؤدي إلى العزة والتمكين.

### مفهوم الخطاب:

وهو المعنى الذي يدل عليه الخطاب دلالة واسعة ويخرج به عن كون الخطاب "كلاماً" إلى معنى يشمل كل دلالات المفهوم من القول "الكلام" والفعل، والسلوك والتصرف والتعامل وغيرها من الوسائل التي يتضمنها مفهوم الخطاب.

وقد اختلفت رؤية القدماء لمفهوم الخطاب الإسلامي عما هو سائد في هذا العصر؛ إذ يتجه معظم القدماء إلى ربط الخطاب بالحكم التكليفي، أو الخطاب بمعنى الكلام، فهو عندهم "الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطاباً"<sup>13</sup>

وذهب الزركشي إلى أن الخطاب هو "الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيئ للفهم -قال- وعرفه قوم بأنه ما يقصد به الإفهام أعم من أن يكون من قصد إفهامه متهيئاً أم لا"<sup>14</sup> أما الآمدي فيرى أن الخطاب هو "اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه"<sup>15</sup> أما المتأخرون فقد نظروا إلى مفهوم الخطاب وليس إلى دلالة النص فقط، لكون الخطاب وسيلة اتصال، أي كانت صورة هذا الاتصال، سواء كان بالكلام أم بغيره من الوسائل، فقد نُظر إليه البعض باعتباره فهم للنصوص.<sup>16</sup> ونظر

<sup>13</sup> الكليات - أبو البقاء الكفوي ص ٤١٩ .

<sup>14</sup> البحر المحيط - الزركشي - ج ١ ص ١٢٦ .

<sup>15</sup> الإحكام في أصول الأحكام - ج ١ .

<sup>16</sup> انظر: مقدمة في علم التفاوض - حسن وجيه - ص ٧١ - ١١٠ .

آخرون إلى مفهوم الخطاب باعتباره يحمل رسالة موجهة فهو "المضمون الفكري الذي تشير إليه لغة فرد أو جماعة، وما يحمله هذا المضمون من رسالة إلى الآخرين، كما أن الخطاب هو وجهة نظر الكاتب، يقدمها على شكل بناء فكري يتكون من مفاهيم وعلاقات بين المفاهيم، يوظف فيها الكاتب قدرته على البناء، وفق قواعد معينة تجعله قادراً على نقل وجهة نظره إلى القارئ"<sup>١٧</sup> ونظر البعض إليه باعتباره تعبيراً عن المضامين الإسلامية، سواء كانت هذه المضامين في حكم الثابت أم الاجتهاد"<sup>١٨</sup> ونظر إليه آخرون " باعتباره مجموعة المفردات التواصلية المعبرة عن الرسالة الاتصالية التي يتداولها الشركاء في أية منظومة اجتماعية محددة، والتي تتضمن الموقف العملي لصاحب الخطاب من كافة أبعاد الحياة الاجتماعية المشتركة في تلك المنظومة المحددة، استناداً إلى مرجعية صاحب الخطاب وظرفه التاريخي وتصوره عن ذاته، سواء أكانت هذه المفردات الاتصالية معبر عنها في شكل نص أو صوت أو صورة .

والخطاب الإسلامي في هذا الإطار هو ذلك الخطاب الذي يستند لمرجعية إسلامية من أصول دين الإسلام، القرآن والسنة، وأي من سائر الفروع الإسلامية الأخرى، سواء أكان منتج الخطاب جماعة إسلامية أم مؤسسة دعوية رسمية أو غير رسمية أو أفراد متفرقون جمعهم الاستناد للدين وأصوله كمرجعية لرؤاهم وأطروحاتهم"<sup>١٩</sup>. والواقع أننا لا نستطيع أن نحدد مفهوماً واحداً لمصطلح الخطاب الإسلامي ، لأن ذلك يختلف باختلاف رؤية الباحثين والدارسين لهذا النص، لكن يمكننا أن نعطي تعريفاً مختصراً له فالخطاب الإسلامي هو:

**" ما يستنبطه الفقهاء والعلماء والمفكرون المسلمون من النصوص الشرعية الثابتة أو اجتهاد الفقهاء وآراء المفكرين، ويتم التعبير عنه بوسائل الإتصال المختلفة "**  
ومن هنا فإن الخطاب الإسلامي ليس نصاً شرعياً بل هو رأي يعبر به صاحبه عما فهمه من النصوص أو من آراء الآخرين أو من اجتهاده الشخصي، سواء كان هذا

<sup>17</sup> الخطاب الإسلامي الحضاري - د. فتحي ملكاوي ص ١٦ .

<sup>18</sup> انظر : الخطاب الإسلامي - تطوير أم استئصال - نبيل شبيب ص ١ .

<sup>19</sup> الخطاب الإسلامي و التجديد .. الماهية و الإشكالات - وسام عبد المجيد ص ١ .



الرأي يحمل حكماً شرعياً اجتهادياً أو رأياً فكرياً، ولذا يمكن مخالفة هذا الاجتهاد أو الرأي بحجة أقوى منه أو رأي آخر.

## أولاً: سمات الخطاب الإسلامي :

### ٧. المشروعية :

الخطاب الإسلامي يقوم على مبدأ المشروعية، أي أنه يقوم على مصادر مشروعة من الله سبحانه وتعالى ، وهي الكتاب والسنة مصدرين أصليين وما تفرع عنهما من مصادر أخرى وهي التي تسمى المصادر الفرعية ، فالقرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، والمحفوظ بحفظ الله سبحانه وتعالى لقوله "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" سورة - الحجر - الآية ٩

وقد جاء شاملاً لكافة جوانب الحياة، فقد قال تعالى : " مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ " سورة الأنعم - الآية ٣٨  
وقوله تعالى : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا " سورة المائدة - الآية ٣

وهو المنظم لحياة المسلمين وهو المرجع الأول لهم في التعرف على دينهم ، وتأتي السنة مصدراً ثانياً للمنظم الإسلامية لقوله تعالى : " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " سورة الحشر - الآية ٧

وتأتي أهمية المشروعية للخطاب الإسلامي من موقع هذه الخطاب وتأثيره في حياة المسلم وتطبيق ما يدعو إليه في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته بالآخرين ، حيث أن هذا التطبيق يعبر عن شخصية المسلم والمجتمعات الإسلامية ، كما أنه يعبر عن استجابة المسلمين أفراداً ومجتمعات لأمر الله سبحانه وتعالى وتحكيمه في شؤونهم استجابة لأمره القائل "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" سورة الأنفال - الآية ٢٤ ، فإذا استجاب المسلمون لأمر الله في كل شأن من شأن حياتهم فإن في ذلك حياتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، أما إذا عصوا أمره وخالفوا شريعته فإنهم على خطر يوشك أن يحيط بهم.

إن بعض الدعوات التي يحملها الخطاب السائد في المجتمعات الإسلامية تنادي بحصر التطبيق الإسلامي في جوانب السلوكيات والأخلاق والعبادات وعزله عن التطبيقات الأخرى تشبيهاً بمجتمعات وشعوب ليس للدين أي دور في حياتها ، وفي هذا تعطيل لجانب من الإسلام ، كما أنه مسخ لشخصية الأفراد و المجتمعات الإسلامية التي تميزهم عن غيرهم من المجتمعات التي وصفها الله بقوله " أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِّمَنْ تَعْمَلُونَ " سورة البقرة الآية ٨٥ ، وهذا تحذير من الله سبحانه وتعالى من حالة الانفصام التي يمكن أن تسود في الخطاب العام الذي يتلقاه المسلمون أفراداً وجماعات حين يكتفون بتطبيق الإسلام في جوانب محدودة من حياتهم ويتركون الجوانب الأخرى .

ولذا فإن الخطاب الإسلامي أكثر الخطابات تأثيراً في المتلقي حيث يعتمد على مصادر مشروعة باستناده إلى النصوص الشرعية من الكتاب و السنة .

## ٨. الإيمانية :

إذا كانت المشروعية إحدى خصائص الخطاب الإسلامي فإن الإيمانية – أو الجانب الإيمانية – يعد من الخصائص التي تميز بها هذا الخطاب ، فهو خطاب يدعو للإيمان ويتأثر به، وعلى الرغم من أن الإيمان يعتبر عملية قلبية والخطاب عملية فكرية تطبيقية إلا أن للإيمان دور مهم فيه ، قال تعالى " ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا " سورة مريم - الآية ٩٦

وقال تعالى " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ " سورة إبراهيم - الآيات ٢٤ - ٢٧

والإيمانية في الخطاب الإسلامي تجمع بين المثالية والواقعية ، إذ أن الإيمان يسمو بصاحبه إلى المثل العليا وينقي سريره من الشوائب والأهواء والمؤثرات ويصبح مهياً

لتلقي أمر الله سبحانه وتعالى فيأتي الخطاب الإسلامي لينقل المسلم من عالم المثالية إلى عالم الواقعية فكلاهما يحقق التوازن للآخر، حتى لا تطغى الجوانب الإيمانية فيعيش المسلم حالة بعيدة عن الواقع فيعزل عن الحياة وينصرف عن شؤونها ويدعها لغيره يسوسها بغير منهج الله وشرعه باسم الواقعية ، كما أنّ الخطاب الإسلامي يحتاج إلى الإيمانية حتى يضبط منهجه عن الزلل أو الخروج عن المنهج المرسوم له إذ الإيمان يحكمه ويهذبه وينقيه من المقاصد الدنيوية أو الأهواء الفردية فيأتي ذلك الخطاب موافقا لشرع الله سبحانه وتعالى ، كما أن الجانب الإيماني يقوي دوافع الإنسان للعمل بما يؤمن به والخطاب الإسلامي هو الشارح و الموجه لما يجب أن يكون عليه المسلم .

والجانب الإيماني لا يتوقف دوره على التأثير في الخطاب الإسلامي ، وإنما يربطه بالجزاء سواء أكان هذا الجزء دنيوياً أو أخروياً ، وهو جانب ينفرد به الخطاب الإسلامي عن بقية الخطابات السائدة الأخرى التي تربط الجزء بما يلقاه الإنسان في حياته بينما يعتمد تأثير الإيمان في الإسلام إلى الجانب الجزائي في الدنيا أو الآخرة فيقول تعالى : **وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** " سورة البقرة - الآية ٢٨١

## ٩. العقيدة :

تعتبر العقيدة ضرورة فطرية للإنسان، فهو لا يستطيع أن يتعامل مع الكون من حوله إلا من رؤية عقدية أيّاً كانت هذه الرؤية ودون الدخول في الحكم عليها بصلاحتها أو فسادها، فنجد أولئك الذين يلحدون ولا يؤمنون بدين أو الماديين الذين لا يطبقون الدين في حياتهم ينطلقون من عقيدة اعتنقوها وآمنوا بها دفعتهم إلى الإلحاد أو إلى عدم تطبيق المبادئ التي يؤمنون بها في حياتهم، مثلما نجد في بعض المجتمعات المادية، فهم يتصرفون بذلك انطلاقاً من اعتقاد يؤمنون به، وهم في حقيقة الأمر مؤمنون بهذه العقيدة، ولذا يمكننا القول إن الإنسان مؤمن بطبعه ، والمسألة بماذا يعتقد الإنسان أو أي دين يعتنق وأي عبادة يمارس وأي أسلوب يطبق، والنظم السائدة في العالم لا تختلف عن أفرادها فهي تطبق ما نعتقد من مبادئ وأفكار، وكمثال على

ذلك فإن النظم المطبقة في المجتمعات الغربية سواء أكانت نظماً سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها، ليست في واقع الأمر إلا تطبيقات لمبادئ نادت بها الأديان السماوية السابقة والتي مازالت آثارها باقية لدى تلك المجتمعات. أو أنها تطبيقات لمبادئ وأفكار دعا لها فلاسفة الغرب ومفكروه وقادته.

و يأتي الخطاب الإسلامي ليعبر عن العقيدة ، وينقل الإيمان بها من الجوانب النظرية إلى الجوانب التطبيقية فتتحول من مجرد إيمان ومبادئ إلى سلوك، وعمل، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أو المجتمع، كما أن العقيدة هي الإطار الحاكم لهذا الخطاب فلا يمكن له أن يخرج عن هذا الإطار الذي شرعه الله سبحانه وتعالى فهو بذلك خطاب عقدي لأن "كل نشاط حيوي يصدر عن الإنسان هو؛ في نظر الإسلام؛ مظهر للاعتقاد باعتباره جوهره وروحه، لا باعتبار مجرد ماديته الظاهرة. فالمعنى الديني في الإسلام يتسع ليشمل العمل الدنيوي بكافة صورته"<sup>20</sup>

لذلك فإن الخطاب الإسلامي بمختلف أنواعه وصوره إنما هو تعبير عن العقيدة الإسلامية في واقعها العملي التطبيقي، وهو بذلك يتناسق مع نظرة الإنسان التي فطره الله عليها باعتباره محتاجاً لعقيدة تنظم حياته. فالرؤية الإسلامية تقرر أن العقيدة ضرورة فطرية للإنسان لا علاقة لها بملايسات العصر أو البيئة، ولذلك يُقال إن الإنسان عابد بطبعه، فالناس يمكن أن يعبدوا الحيوانات أو الأشجار أو الأصنام أو الذهب، أو إلهاً غير مرئي، وقد يعبدون أسلافهم أو أمتهم أو طبقتهم أو حزبهم أو المال أو النجاح ، والخلاصة أن العقيدة خاصية إنسانية أزلية يعبر عنها المولى عز وجل سبحانه بـ "العهد" وهو العهد أو الميثاق الأول الذي أخذ على البشرية جمعاء. قال تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" سورة الأعراف - الآية

ولذا فالخطاب الإسلامي يتسم بأنه خطاب عقدي ، يلتزم بالعقيدة و يعمل على نشرها و تصحيحها مما قد يلحق بها من انحراف أو بدع أو تشويه .

---

<sup>20</sup> خصائص التشريع الإسلامي - محمد فتحي - ص ١١٥ .

## ١٠. الإنسانية:

يتميز الخطاب الإسلامي بأنه إنساني النزعة، فهو ذو بعد إنساني كبير، مخاطب فيه روحه وعقله وبحث قضايا ومشاكله النفسية والخلقية والسياسية والاجتماعية والتربوية.. وغير ذلك مما يواجه الإنسان في كل وقت ومكان، جاء ليعرض أمامه الحلول الناجحة وليخرجه من هذه المشكلات.

لقد نجحت كل النظريات والأفكار في تصورها للإنسان، فبين مطلق العنان - في هذه الحياة - بحيث أصبح تصوره للإنسان أكبر مما ينبغي فجعل الإنسان محوراً لكل مظاهر الحياة، منه تبدأ وإليه تنتهي، هو الهدف وهو الوسيلة، وهو الذي يستطيع أن يتحكم في الحياة ويوجهها كيف يشاء فاصطدم بعجز الإنسان ومحدودية طاقته وقدرته.

وجاءت فئة أخرى لتعطل دور الإنسان وتجعله عنصراً من عناصر الحياة الأخرى لا دور له ولا مكان فهو لا يختلف عن الحيوان أو الجماد، إلا من خلال بعض الصفات المحدودة، فعطلت هذا الدور الكبير الذي يمكن أن يقوم به الإنسان في الحياة. وهكذا اختلفت التصورات للإنسان بين إفراط وتفريط، وجاء الإسلام بمنهجه المتوازن ليعطي الإنسان دوراً مهماً في الحياة يتناسب وإمكانياته وطاقاته التي وهبها الله له، وفي نفس الوقت لا يتجاوز هذا الدور المرسوم له من خالقه، وتمثل ذلك الدور في خلافة الإنسان في الأرض واستعمارها لها لتحقيق معنى وجوده في هذه الحياة وهو العبودية لله.

قال تعالى: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " سورة البقرة - الآية ٣٠

وقال تعالى: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " سورة الذاريات - الآية ٥٦ والقول بإنسانية الخطاب الإسلامي لا يعني تعارضه مع ربانيته، إذ لا تعارض ألبتة بين الصفتين " فالإسلام مع ربانيته هو إنساني أيضاً في الغاية والوجهة، ومن هنا نقول: إن للإنسان مكاناً، أي مكان في غايات الإسلام العليا، وأهدافه الكبرى، مع تقرير غايته

الربانية وإبرازها وتثبيتها، إذ لا تنافي بين الغاية الربانية والغاية الإنسانية، بل هما متكاملتان. فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربانية التي قام عليها الإسلام<sup>21</sup> بل إن الأمر أبعد من ذلك، فصفة الربانية تحفظ للخطاب أصالته وانتماءه لمنهج ثابت صحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتحفظ له الاستقرار في المرجع والمصدر، وتأتي صفة الإنسانية لتعطي له بُعداً متحركاً في الإبداع والعطاء الإنساني، فهذه الصفة للخطاب الإسلامي يصبح مبدعاً منتجاً يستوعب كل فكر بشري وإنتاج حضاري ليضعه في ميزان الربانية وقيسه بها، لأن أي فكر بشري مهما بلغ من النبوغ أو العبقرية لا يسلم من الخطأ أو القصور، ولأن كل ثقافة بشرية المصدر - بأي صورة من الصور - لا يمكن أن تكون (إنسانية) تصلح لجميع الناس في جميع العصور، أو على الأقل لا يمكن أن تتصف بالعموم أو الخلود، لأن الإنسان مهما سمى عنده النزعة الإنسانية واستطاع أن يكون مثلاً للنزاهة والتجرد، لا يمكن أن يفصل عن مجتمعه وبيئته أو من زمانه على أقل تقدير<sup>22</sup>

ويعبر الأستاذ مالك بن نبي عن ذلك فيقول: "إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض حيث يخضع كل لقانون المكان والزمان، بينما يتخطى القرآن دائماً نطاق هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية"<sup>23</sup>

ولذلك فإن الربانية هي الميزان الذي يضبط الصفة الأخرى - الإنسانية - ويوجهها لتحقيق هدفها الإنساني.

## ١١. الثبات:

<sup>21</sup> الخصائص العامة للإسلام - د. يوسف القرضاوي ص ١٣.

<sup>22</sup> إنسانية الثقافة الإسلامية - د. عدنان زورور ص ١٢.

<sup>23</sup> الظاهرة القرآنية - مالك بن نبي ص ٢٣٨.

فالخطاب الإسلامي يتميز دون غيره بصفة الثبات في القواعد والأصول، فمفاهيمه وتصويراته ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، لأن الخطاب الإسلامي يستمد هذه المفاهيم والتصويرات من مصدرين ثابتين هما كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

والثبات لا يعني جمود الفهم عند قوالب فكرية معينة أو عدم القدرة على استيعاب ما يستجد من الأفكار الجديدة، بل الثبات يعني التعامل مع هذه الأفكار بقواعد ثابتة تزن كل جديد بتلك القواعد، فإن وافقها كانت جزءاً منه وإن عارضها واختلف معها يبقى خطاباً له حضوره وأثره لكنه لا يوصف بـ "الخطاب الإسلامي".

وهذا الثبات في القواعد والأصول مع المرونة في الفهم والاستنباط جعل الخطاب الإسلامي يستمر في كل الظروف والأزمان على الرغم مما أصاب المسلمين من انتكاسات إلا أنه يحافظ على خصائصه ومميزاته، بل استطاع أن يواجه ما تطرحه الثقافات والتيارات الفكرية المتعددة، سواء كانت تلك الثقافات والتيارات الفكرية داخل المجتمع الإسلامي - لكنها منحرفة - أو تيارات فكرية خارجية مناقضة ومخالفة لمنهج الله.

والثبات بالنسبة للخطاب الإسلامي مهمة تعطي الحياة الإسلامية استقراراً وطمأنينة، فإن أي مجتمع إذا لم يقيم على تصورات ثابتة أو مستقرة فإنه يعيش مضطرباً قلقاً من التحولات والتغيرات التي قد تدخل أو تطرأ عليه. لأن "الثقافات المرتكزة على النظريات البشرية والفلسفات المحدودة والمرتبطة بقيود الزمان والمكان والخاضعة لمؤثرات البيئة والظروف، والمتأثرة بالأزمات النفسية والهزات الاجتماعية، وما ينجم عنها من ردود الفعل التي يبعدها العمق والصدق والاتزان، إن هذه الثقافات - وهذا حالها - إنما تعيش في الحقيقة خارج دائرة الوجدان الإنساني في أصالته ونقائه، فهي بعيدة كل البعد عن أي نزعة تحفظ للإنسان مكانته الرفيعة التي أكرمها الله بها، ولا تملك إلا أن تسوق الإنسان بنزعة القوة التي تسيطر بها عليه سيطرة تسلبه حريته"<sup>٢٤</sup>

## ١٢. الواقعية:

<sup>24</sup> لمحات من الثقافة الإسلامية - د. عمر عودة الخطيب ص ٦٤ .

الخطاب الإسلامي واقعي وليس خيالي أو مثالي - بمعنى النموذج المستحيل - فهو يعيش للواقع وإن كان يرمي إلى المثالية الممكنة حين يجعل من المبادئ والأهداف الكبيرة غايات يسعى لتحقيقها. وفي نفس الوقت لا يغفل الواقع الذي يعيشه الإنسان في ذاته وفي نظرتة للكون وتحديد دوره في الحياة.

ولذلك تعامل الخطاب من خلال المنهج الإسلامي مع الحياة بهذا التصور؛ تعامل مع الإنسان وهو يدرك حقيقته وطاقته وإمكانياته البشرية المحدودة، فلم تأت الأحكام ولا الواجبات لتكلفه فوق طاقته أو بما يستحيل تحقيقه، بل جاءت الأحكام الشرعية على قدر استطاعة الإنسان سواء كانت هذه الاستطاعة في المدركات والتصورات أو في المحسوسات من التصرفات البشرية، بل إن الإسلام يرفض الغلو والتشدد في أخذ التكاليف الشرعية ويرفض أي زيادة فيها، لأن في ذلك تكليفاً للإنسان بما لا يطيق، فجاءت هذه الأحكام متناسقة مع الإنسان في فطرته وطاقته.

وبذلك تميّز الخطاب الإسلامي برؤيته للواقعية عن تلك الطريقة التي تعاملت معها الأفكار البشرية والآراء المادية بتجاوز أفقها دورها حين أصبحت الواقعية تعني كل محسوس ومدرك إدراكاً مادياً، فأنكرت الغيبيات وما وراء المادة لأنها تُعتبر واقعية في نظرهم وأدى ذلك إلى إنكار وجود إله خالق متصرف في هذا الكون وأصبحت المادة المحسوسة - في تصورهم - هي المتصرف والمتحكم في شؤون الحياة!!

إلا أن هذه الآراء اصطدمت بالواقعية نفسها ، فقد أثبتت - واقعيتهم - أن هناك قوى وعالمًا ليس مدركاً بجواس الإنسان وإنما هو خارج عن إطار الحس، لأنها - الواقعية - عجزت عن إنكاره كما عجزت عن استيعابه.

أما الواقعية التي نعيها في التصور الإسلامي - والتي هي إحدى صفات الخطاب الإسلامي - هي الواقعية التي تعترف بإمكانيات الإنسان وطاقاته وإدراكه، وتسخر ذلك لمعرفة ما خلف هذه الطاقة من الغيبيات والعالم غير المشهود الذي يمكن إدراكه بالعقل المحكوم والموجه من الشرع بحيث يقف هذا العقل عند حدوده وإمكانياته لا يتجاوزها، ويترك الأمر بعد ذلك للتسليم المطلق بصحة ما جاءت به الأدلة الشرعية الثابتة.



هذه هي الواقعية التي يتميز بها الخطاب الإسلامي في الحياة، تلك الواقعية التي لا تغفل الحياة وشؤونها، فالخطاب الإسلامي ليس موجّهاً لإسعاد الناس في الدنيا فقط، مثلما أنه ليس خطاباً - كهنوياً - موجّهاً لربط الناس بالآخرة، بل هو خطاب موجّه لإسعاد الناس في الدارين، ولذلك جاء الخطاب الإسلامي ليعالج شؤون الدارين. وواقعية الخطاب الإسلامي لا تعني الخضوع للواقع وصياغة شؤون الحياة وفق هذا الواقع وتأثيراته والخضوع له، واعتباره المؤثر الوحيد في التصورات والأفكار، لكنها تعني الاهتمام بهذا الواقع بحيث يعمل على تأكيد الجيد والصالح مما في الواقع وتغيير السيئ والفاقد منه وفق منهج قويم هو المنهج الشرعي، وردّ كل ما في الواقع إلى هذا المنهج الشرعي.

## **ثانياً أهداف الخطاب الإسلامي :**

للخطاب الإسلامي أهداف عدة من أبرزها :

### **٨. الدعوة إلى الإسلام :**

إن الدعوة من أهم أهداف الخطاب الإسلامي، فهي الوسيلة التنفيذية للعقيدة التي تحملها الأمة، لأن هذه العقيدة التي جاء بها الإسلام ليست عقيدة محصورة بزمن أو أرض أو جنس، بل هي للناس كافة، وحتى يتحقق هذا العموم كانت الدعوة هي الوسيلة لنشر هذه العقيدة وهذا المبدأ الذي نادى به الأنبياء السابقون وختمت بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومفهوم الدعوة في الخطاب الإسلامي يعطيه امتداداً في الزمان والمكان لأن الدعوة لا تتوقف عند حدود جغرافية بل هي لكل مكان، ولا تتوقف عند جنس فهي ليست للعرب، ولو كانت كذلك لتوقفت الدعوة منذ العهد النبوي، بل هي امتداد ينساب إلى كل مكان يقبل أن يتخذ الإسلام ديناً.

أما الامتداد الزماني فالخطاب الدعوي الإسلامي هو الوارث لدعوات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" سورة البقرة - الآية ١٣٦

وبهذا الميراث الذي تمّ بختم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تنطلق الدعوة إلى آفاق الزمان، ليصوغ الحياة في كل زمان على ذلك المنهج الإلهي الذي جاء به هؤلاء الأنبياء، فهو خطاب مستمر في امتداده الزماني، وهو الذي يصلح لأن يكون خطاب (العصر) لأنه يستطيع أن يوجد لكل عصر ما يناسبه في شتى شؤون حياته لما يتميز به من مرونة وشمول مع ثبات واستقرار في الأصول.

وبهذا نرى أثر الدعوة في تحديد طبيعة الخطاب الإسلامي، ذلك الأثر الذي يوجب أن يكون الخطاب بهذه الصفة (إسلامي) القيام بالدعوة وأداء هذا الواجب وتبليغ دعوة الله سبحانه وتعالى إلى الناس كافة، وأن يتخذ الوسائل المختلفة لتحقيق ذلك. وكان هذا منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في علاقاته بالناس أفراداً وملوكاً ودولاً، فقد كانت الدعوة إلى الإسلام هي الهدف الذي بُعث من أجله. فقد أمره ربه بالصدع بالدعوة فقال سبحانه: : "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " سورة يوسف - الآية ١٠٨

وقوله تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " سورة آل عمران - الآية ١٠٤

وسار المصطفى عليه الصلاة والسلام على هذا الطريق، وأوصى أصحابه رضوان الله عليهم بالسير كذلك كما في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ قَالَ: "إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كِرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ".<sup>٢٥</sup>

## ٩. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من تمام واجبات الفرد والدولة المسلمة، والخطاب الإسلامي في حقيقته أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

<sup>25</sup> فتح الباري شرح صحيح البخاري - العسقلاني - كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس حديث رقم (١٤٥٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن عبادته وطاعته : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الإمكان، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق، فيجتهدون في إقامة دينه، مستعينين به، رافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات، دافعين بذلك ما قد يخاف من آثار ذلك"<sup>٢٦</sup>

وقد خصّ الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام بهذه الصفة إذ جعلها أمة أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر وجعل ذلك من تمام الإيمان. فقال تعالى: " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ " سورة آل عمران - الآية ١١٠  
وقال كذلك: " وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " سورة التوبة - الآية ٧١

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "بين الله سبحانه وتعالى أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم، لأنهم يمنحون كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهذا كمال النفع للخلق.

وسائر الأمم لم يأمرُوا كل أحد بكل معروف، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك"<sup>٢٧</sup>

وجعل سبحانه وتعالى من مستلزمات التمكين في الأرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال سبحانه وتعالى: " الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ " سورة الحج - الآية ٤١  
"قال الحسن وأبو العالية: هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة. وقال ابن نجيح: يعني الولاية. وقال الضحاك: هو شرط شرطه الله عز وجل على من آتاه الملك، وهذا حسن. قال سهل بن عبد الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب السلطان

<sup>26</sup> العبودية - ابن تيمية ص ٦١.

<sup>27</sup> الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ابن تيمية ص ١٢.

وعلى العلماء يأتونه<sup>٢٨</sup> وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: "والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"<sup>٢٩</sup> وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين أفراداً وجماعات أن يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر فقال: "مَنْ رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"<sup>٣٠</sup>

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل أسلوباً متميزاً في الخطاب الإسلامي لمعالجة الأخطاء والتقصير الذي قد يلّم بالحياة الإسلامية أفراداً وجماعات، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقوم للنقد والهدم لما عند الآخرين أو لبيان نقائصهم وأخطائهم وعيوبهم، وإنما يقوم على تأكيد الجوانب الإيجابية والنهي عن الجوانب السلبية، ولذلك تتسع دائرته لتشمل السلطان أو الحاكم نفسه حيث يجب عليه ذلك، كما يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دائرة أوسع وهم العلماء، أي أهل الاختصاص، ثم بعد ذلك يشمل المسلمين عامة

## ١٠. نشر الأخلاق والفضائل :

يتصف الخطاب الإسلامي بأنه أخلاقي؛ لأنه يدعو إلى التربية الصالحة في محيط تتوفر له دعائم الخلق الحسن الذي يقوم على قواعد ثابتة من الدين والفضائل التي تعارفت عليها العقول السليمة، فإذا كانت الدعوة إلى الإسلام واجباً يقوم به المسلمون ، والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر يتم داخل المجتمعات الإسلامية فإن الدعوة للمحافظة على الأخلاق هدف يلتقى فيه الخطاب الإسلامي مع غيره من الخطابات الأخرى .

ولذلك جعل الإسلام للأخلاق دوراً مهماً ، لا في سلوك الأفراد ومعاملاتهم فحسب، ولكن في كل شأن من شؤون حياتهم، فالتصرفات الفردية والمعاملات الجماعية

28 الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ج ١٢ ص ٧٣ .

29 الجامع الصحيح للترمذي ج ٤، ص ٤٦٨ .

30 صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٢ .

والعلاقات بين الناس ، بل العلاقات مع الكائنات الأخرى يجب أن تتم وفق تصرف أخلاقي سليم.

إن جميع الأمم والدول تسعى في بنائها التربوي والفكري إلى إيجاد عناصر صالحة من أفرادها لبنائها وتعميرها، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كان هؤلاء الأفراد على مستوى خلقي رفيع، بحيث يكونون أدوات صالحة لهذا البناء، يستوي في ذلك المسلمون وغيرهم، إذ لا نتصور تصوّراً بناءً اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً يقوم على أسس هزيلة من الخلق أو التربية.

"ولذلك فإن أي خطاب فكري يجعل من الأخلاق صفة له يستطيع أن ينشئ جيلاً سليماً من الانحراف أو الاضطراب النفسي أو الاجتماعي، ولهذا فإن أو ل عمل يأتي به الإسلام أنه يزود الأخلاق الإنسانية بمرکز صحيح وقطب مستقيم إذا اقتزنت به حوّلها إلى الخير والرشد برمتها"<sup>31</sup>

وهذا المركز هو أصلها الذي تقوم عليه وتنطلق منه وهو امتدادها من الكتاب والسنة، إذ الأخلاق في الإسلام تقوم على هذه الأسس الثابتة، ومن هنا فإن الخلق الإسلامي ليس صالحاً للمسلمين فقط، بل لغيرهم من الناس وإن لم يدينوا بالإسلام عقيدةً وشرعيةً.

ولذلك جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلم مؤكداً لهذا المعنى بقوله: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"<sup>32</sup>

وكان عليه الصلاة والسلام يقول: "إن خياركم أحسنكم أخلاقاً"<sup>33</sup>

كما يقوم الخطاب الإسلامي على نشر الفضيلة والطهارة والعفاف، فهو وإن كان خطاباً بشرياً يعتز به ما يصيب البشر من الخطأ والتقصير والضعف إلا أنه لا يسكت عن الفساد والرذيلة، بل يحارب ذلك ويعمل على سدّ جميع الأبواب التي يمكن أن

<sup>31</sup> الأسس الأخلاقية - أبو الأعلى المودودي ص ٣٤ (بتصرف).

<sup>32</sup> الأدب المفرد - البخاري ص ١٢٢.

<sup>33</sup> فتح الباري شرح صحيح البخاري - للعسقلاني ج ١٠ ص ٢٥٦.

تصبح مدخلاً للرديلة، كما أنه يعمل على تنمية عناصر الخير في النفس البشرية لتقوم بدورها في توجيه الإنسان إلى الفضيلة. وأول ما يعمل الخطاب الإسلامي على تنميته هو الضمير الإنساني، إذ من خلال هذا الجانب يمكن توجيه الإنسان إلى الخير أو إلى الشر، فإذا كان الضمير يقظاً حياً تسرّه الحسنة وتسيئه المعصية كان الإنسان إلى الفضيلة أقرب، وإلى الخير أسرع، أما إذا مات الضمير الإنساني وتوقف إحساسه عن التفاعل كان الإنسان إلى الرديلة أسرع وإلى الشر أقرب.

ومن هنا كان الخطاب الإسلامي يتوجه إلى الضمير لإيقاظه ودفعه إلى الفضيلة، انطلاقاً من توجيه الإسلام الذي لم يكتفِ بجعل الضمير رقيباً على الإنسان، بل جعل عليه رقيباً خارجياً لا يتخلف، ويتمثل هذا الرقيب في شعور الإنسان المسلم بمراقبة الله سبحانه وتعالى له في كل حين.

ولذلك جاء في حديث جبريل عليه السلام حين سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإحسان قال: "ما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.." ٣٤

إن تربية الضمير على الارتباط بالله ومراقبته الدائمة في السر والعلن وما يتبع ذلك من خشية الله وخوف منه رجاء لرحمته، ثم الالتزام بما أمر الله به ونهى عنه، كل ذلك يشكل الدائرة الأولى التي يعمل الخطاب الإسلامي من خلالها لتربية المجتمع المسلم على الفضيلة والعفاف.

إن الخطاب الإسلامي حين يعتني بالفضيلة ويجعلها إحدى أهدافه فإنما يضع قاعدة مهمة في حياة الشعوب وهي قيامها على مبدأ الخلق، إذ يعمل الخلق الحسن على إشاعة روح المحبة والألفة والمعاملة الحسنة بين أفراد المجتمع فينشأ سليماً معافى. فالشعوب التي لا يتحقق فيها الجانب الخُلقي ولا تسودها الفضيلة تعيش حياة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية، فتشيع فيها الفواحش والمنكرات وتنتشر الجرائم والفساد ويصبح المجتمع في رعب من الجريمة وآثارها، أو الانحراف الجنسي أو الفساد الأخلاقي أو غير ذلك من مظاهر الرديلة التي تهدم المجتمعات من الداخل.

34 فتح الباري - العسقلاني ج ١ ص ١١٤.

إن هدف الخطاب الإسلامي أن يكون المجتمع مجتمعاً نظيفاً في باطنه وظاهره، مجتمعاً لا تسوده الجريمة ولا تنتشر فيه الأمراض الاجتماعية ولا تمزقه الأحقاد البشرية.

## ١١. الشهود الحضاري :

الخطاب الإسلامي يؤسس لمكانة لا تفتقر بالحضارة الإسلامية التي بقيت مستعصية على الفناء أو الانهيار، من خلال قدرة الحضارة الإسلامية على المحافظة على مقومات النهوض و الاستمرار، ولعل كثير ممن يشدهم الواقع الذي يعيشه المسلمون يرون في ذلك شحطات "خيال" ، أو "لا واقعية" في التصور، لكن التاريخ علمنا أن هذه الحضارة قادرة على العودة إلى الصف الأول مع غيرها من الحضارات إن لم تكن في مقدمتهم، وقادرة على الاسهام مع غيرها في صنع حضارة إنسانية تحقق للإنسان مبتغاه من الحياة الكريمة، ولذا فإن ما يستقبل الأمة الإسلامية من اسهام حضاري ينطلق من تلك المقدمات و ذلك من خلال ما يمكن أن نصلح عليه بالشهود الحضاري انطلاقاً من قوله تعالى " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ سورة البقرة - الآية ١٤٣

وقد ختمت هذه الآية بقوله تعالى " إن الله بالناس لرؤوف رحيم " ، وقد ذهب المفسرون في ذلك مذاهب شتى ، إذ تحدث بعضهم عن الشهادة في الحياة الأخرى ، لكن مفسرين آخرين ذهبوا إلى أن الشهود ليسوا في الأخرة فقط بل هناك شهود في الحياة كذلك مثلما يقول عطاء إن "أمة محمد شهداء على من ترك الحق حين جاءه بالإيمان والهدى من كان قبلنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد على أمته وهم شهداء على الأمم وهم أحد الأشهاد الذين قال الله عز وجل " ويوم يقوم الأشهاد " ، وكما يقول الطبري في تفسيره "شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغة من رسالاتي إلى أممها ، ويكون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكم بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي " ، والشهود الذي تقوم به الأمة الإسلامية قائم على معايير ثلاثة هي الوسطية والرحمة والخيرية ، وهو ما أكدته

الآية ، إذ أن معيار الوسطية أعطى الأمة الإسلامية حالة من الاعتدال الذي يجعلها مقياساً تقاس عليه الأمم السابقة التي أفرطت أو فرطت " فلما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً أي هذه الأمة لم تغلُ غلو النصارى في أنبيائهم ، ولا قصرُوا تقصير اليهود في أنبيائهم"<sup>٣٥</sup>

وتلك الوسطية قائمة على ما حظى الله سبحانه وتعالى به هذه الأمة "بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب ، كما قال تعالى : " وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ "

سورة الحج - الآية ٧٨

أما المعيار الثاني فقوامه الرأفة والرحمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للناس كافة ، وقد جمع بين الرأفة التي هي أشد من الرحمة - كما يقول عمر بن العلاء - للتأكيد على أن الناس جميعاً محتاجون إلى رحمة الله ورأفته" ، ويؤكد هذا الفهم الحضاري للرأفة والرحمة قول النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح عندما رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها فلما وجدته ضمته إليها وألصقته بصدورها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه ، قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها" ، ومن هنا فإن الحضارة الإسلامية حين تتميز بهذا الوصف أي بالرأفة والرحمة باعتبارها تمثل الأمر الإلهي تطبيقاً وتحقيقاً فإنها تحمل في مضمونها معنى الشهود الحضاري خاصة وأنها قد تيسرت له إمكانية القيام بهذا الدور من خلال المعيار الثالث الذي اتصفت به لقوله تعالى " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكَوَلُوا آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ "

سورة آل عمران - الآية ١١٠

<sup>35</sup> تفسير القرطبي .



فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لفظان عامان يدلان على القيام بدور في تحقيق الخيرية للناس ، فهذا المعنى يعطي لهذه الأمة دوراً بين الناس وهو دفعهم للمعروف ، أي معروف دون تحديد ممن ولمن وكيف ، كما أنه لفظ يخرج من إطاره الزمني والمكاني ليمتد عبر الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومثل ذلك في النهي عن المنكر ، لكن الملاحظ أن الإيمان بالله وهو أحد أضلاع الخيرية جاء في آخر الترتيب حتى لا يتصور أحد - والله أعلم - أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو للمؤمنين فقط بل هو منهم ولهم وللناس كافة إن هم أرادوا تحقيق الخيرية في أنفسهم ، يقول القرطبي في تفسير هذه الأمة هو "مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به ، فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم الذم ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم ، وبناء على أن الإسلام عالمي الهدف، فإن الحضارة التي تنشأ به ليست بالحضارة المنكفئة على ذاتها حبيسة لدائرة المجتمع الإسلامي فحسب، بل هي حضارة تجعل من همومها الانتشار بين الناس، ومن ثم فإن لها بعداً إنسانياً عاماً كمبدأ أساسي من مبادئها. وحينما يكون الأمر كذلك فإن التحضر الإسلامي كما كان له بعده الداخلي المتعلق بدائرة المجتمع الإسلامي فإن له بعده الإنساني المتعلق بالموقف من الناس عامة، وإذا تجاوزنا المعنى الغيبي الذي تحمله الشهادة على الناس كما ذكره المفسرون متمثلاً في شهادة الأمة الإسلامية في اليوم الآخر على الأمم أنهم قد بلغوا رسالات أنبيائهم، إذا تجاوزنا ذلك إلى معنى الشهادة على الناس في الدنيا فإن هذه الشهادة إذا ما عدنا إلى دلالاتها اللغوية، وإلى سياقها في الآية مرتبطة ارتباطاً عالياً مع الوسطية تبين أنها تمثل منهجاً متكاملًا في التعامل الحضاري للمسلمين مع الآخرين من الناس. فالشهادة في ظاهرها هي الإخبار عن أمر وقع العلم به لإقامة حق يتوقف عليه ذلك الإخبار ، وهو ما يقوم على أربعة عناصر أساسية: العلم الذي هو أساس الشهادة، والبيان والإظهار لذلك العلم، ثم تبليغ ذلك العلم بحيث يصير واصلاً إلى الآخرين على الوجه المقنع، ثم العدل في كل ذلك حتى تكون الشهادة مفضية إلى نفع المشهود عليهم. تلك هي الشهادة على الناس التي يقوم عليها التحضر الإسلامي تأسيساً في مبادئ الدين ، وتطبيقاً في السيرة العملية للحضارة الإسلامية. إنها شهادة

تنطلق من تصور عقدي للإنسان الذي خلق للنعمة ، وكرم تكريماً ، وحمل الأمانة تعظيماً ، وبناء على ذلك فإن التحضر الإسلامي يشهد على الناس بشهادة العلم بحقائق الدين والكون والناس، ثم شهادة على الناس بتبليغ تلك الحقائق تبليغ إنقاذ وإصلاح ونشر للخير ، شهادة عدل في الموقع الوسطي بين المتطرفات في الأفكار والسلوك ، ليكون ذلك الموقع مثوبة لمن ترهق فطرته مسالك التطرف، وشهادة عدل في الحكم بين الناس بالتعامل المتساوي معهم، وبرد جائرهم عن مظلومهم، ونصرة المستضعفين والمقهورين. هذه هي شهادة التحضر الإسلامي على الناس، وهي شهادة لا يضيرها خروقات الأفراد والحالات الجزئية المعزولة إذا ما ظلت قائمة في عمومها زمن التحضر . وهي إذا ما خفت بالحدار الأمة، فإنه لا ينهض تحضر إسلامي إلا على أسسها ، وإلا فهو تحضر غير إسلامي . وما أكثرها من حضارات لا يبالي أهلها بالناس إلا أن يتخذوهم مرقاة لأغراضهم الخاصة<sup>36</sup> .

ولعل من الشهود الحضاري للأمة المسلمة هو المشاركة في صنع حضارة إنسانية معاصرة، فقد تعالت الصيحات الإنسانية محذرة من مآل البشرية في عالم يموج بالماديات وتراجع فيه الروحيات يوماً بعد يوم مما ينعكس على حياة الإنسان ذاته ، إذ الحضارة لا تتشكل من جناح واحد ولا تطير إلا بجناحين ، جناح العلم ، وجناح الروح، وهما جناحان متوزعان في عالم اليوم فمن يملك العلوم والمعارف لا يملك الروح والقيم والفضائل إلا قليلاً ، ومثل ذلك القليل من العلم الذي يملكه من يملك جناح الروح والقيم والفضائل ، فلم يحقق أياً من الطرفين حضارة متكاملة بالمعنى الدقيق للحضارة ، ولذا فإن الأمة المسلمة تملك الأصل الثابت للحضارة وهو جانبها الروحي لكنها تفتقد إلى الجانب العلمي المادي ، وحين تعجز عن صنع حضارة خاصة بها فلا أقل من المشاركة مع الآخرين في صنع تلك الحضارة والعمل على إيجاد حضارة إنسانية معاصرة ومتوازنة. إن الرجوع إلى ماضي الأمة الإسلامية والاستشهاد بنموذجها الرائع حين أبدعت إنتاجاً علمياً حضارياً عظيماً لا يكفي وحده لبناء حضارة جديدة فما فعله الأوائل من علماء الإسلام الذين برعوا في المعارف والعلوم

<sup>36</sup> انظر : فقه التحضر الإسلامي - د. عبد الحميد النجار ص ٢٤ .

ووضعوا أسساً لحضارة استمدت الغرب منها قواعده ليبني عليها مدنيته - كل أولئك - تركوا تراثاً عظيماً توقف عن النماء حين تحلى المسلمون عن دورهم الحضاري، ولا يمكن أن يعود ذلك التراث بل لا بد من بناء جديد يقوم على معطيات وحاجيات جديدة، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال التفعيل الروحي أولاً باعتبار ذلك أساس لبناء واستمرارية الحضارة وحتى لا تكون عرضة للهدم أو الانحراف، والأمة المسلمة هي الأقدر على تقديم هذا الجانب لما تملكه من مصادر ثابتة وملائمة لتحقيق الغرض من خلال تطبيقاتها الواقعية التي أثبتت الحاجة الإنسانية لها حتى مع اختلاف الدين أو المعتقد، لكن الواقع الذي يعيشه المسلمون يقف حائلاً دون تحقيق هذه الروحية إذ مع سموها وارتفاع مكانتها وقدرها لا تجد من يحسن عرضها فهي كسلعة جيدة في سوق كاسدة!! ومع ذلك فإن هذه الروحية على الرغم من الظروف التي تحيط بها تجد لها مسارب تنساب فيها لتصل إلى طالبي الحقيقة من الناس، وهذا ما يفسر الاقبال على الدخول في الإسلام من مجموعات وأفراد لم يجدوا راحتهم الروحية إلا مع الإسلام، وإذا كان هذا شأن الأفراد والمجموعات فإن الأمم والحضارات لا تقل شأنًا وحاجة عنها؛ فالخواء الروحي الذي يلف العالم اليوم دعا عقلاء البشر ليجأروا بالدعوة إلى إحلال الروحانيات في حياة الإنسان تحقيقاً للتوازن مع حياته المادية وتحقيقاً للاستقرار الداخلي حتى يعيش الإنسان حياة مطمئنة، كما أن تلك المشاركة لا تعني العزلة والانكفاء، بل التفاعل مع العالم المحيط والتعامل مع احتياجاته بروح من المشاركة والتسامح، تحقيقاً لغاية الإسلام ورسالته للبشرية كافة والتقاء مع بني البشر فيما يحقق سعادتهم واطمئنانهم.

## ١٢. تحرير المفاهيم الإسلامية :

لابد للخطاب الإسلامي من التعامل مع الأسس التي قامت كثير من المفاهيم و الأفكار و الدعوات السائدة بين المسلمين، سواء كانوا في بلادهم أم كانوا في المهجر، إذ أن معظم هذه المفاهيم و الأفكار تزعم أنها تنطلق من تصور إسلامي، فكثير من البيانات وأدبيات الخطاب السائد بين المسلمين تستند إلى بعض النصوص الشرعية وبعض المواقف التاريخية التي توظفها لتبرير تصرفاتها وأعمالها، إلى جانب اعتمادها على فتاوى تصدر من بعض الباحثين في الأحكام الشرعية، وبعيداً عن مناقشة هذه الآراء فإن التعامل مع هذه الظاهرة يمتد ليعالج بعض الجوانب المهمة في المجتمعات العربية و الإسلامية.

في وقت ضعف فيه العلم الشرعي -بصفة عامة- ، وتراجع فيه دور الفقهاء عن معالجة المشكلات المجتمعية في ضوء الأحكام الشرعية وما تبع ذلك من مستجدات و تساؤلات تحتاج إلي من بينها، وإحجام كثير من الفقهاء و العلماء عن مناقشتها، كل ذلك أدى إلى أن تبرز مجموعة من أبناء المسلمين لتطرح مفهوماً حول القضايا المعاصرة برؤيتها التي تتصف تارة بالحدة والغلو وتارة بالفهم الخاطيء، وأعطت لتلك الدعوات و التصورات لباساً شرعياً مستدلة عليه ببعض الأدلة الشرعية التي حاولت أن تعطيتها تفسيراً يتناسب مع تصورها وأهدافها، وطرحت تلك الرؤى على عامة المسلمين حيث تلقته طائفة منهم باعتبارها الحق الذي لا بديل عنه خاصة وأنها تزعم مشروعيتها تصرفاتها وأعمالها اعتماداً على ذلك الفهم، بل ولم يقتصر الأمر على مجتمعات المسلمين بل امتد إلى غيرها من المجتمعات ومن هنا فإن نزع المشروعية الإسلامية عن هذه التصرفات والأعمال يعتبر المدخل الأساس الذي تبدأ به معالجة ظاهرة الإرهاب، إن بيان حقيقة ظاهرة الإرهاب وكونها ظاهرة إجرامية عالمية غير مرتبطة بدين أو مذهب أو جنس أو لون يعتبر مقدمة لسحب البساط من تحت الحركات و الجماعات التي تتبنى الإرهاب والعنف.

إن معالجة هذه الظاهرة و نزع المشروعية عن الأفكار السائدة هو أحد الأهداف التي يجب أن يعمل لها الخطاب الإسلامي، إن مثل هذا (النزع) سيضع هذه الأفكار و

المفاهيم في موضعها الطبيعي باعتبارها ظاهرة طارئة على الخطاب الإسلامي، كما أنها ستعزل القائمين عليها عن بقية المجتمع الإسلامي إذ سينظر إليه باعتبارها ظاهرة منافية للإسلام أو مخالفة لطبيعته وأهدافه ورسالته، لكن تحقيق هذه الغاية يتطلب جهوداً واسعة تبدأ ببيان الأحكام الشرعية وآراء الفقهاء والمفكرين المسلمين المعاصرين، وتنتهي بتغيير تصورات المجتمعات ومؤسسات التأثير في الرأي العام كوسائل الإعلام والاتصال وغيرها حول هذه المفاهيم والأفكار.

لكن هذه المعالجة وسحب بساط المشروعية يحتاج إلى توازن في الطرح، فعملها كعمل الجراح الذي يجب عليه أن يقوم بعملية جراحية لمعالجة عضو معين بشرط أن لا يتأثر عضو آخر بالعملية الجراحية. فبعض ما يطرح لمعالجة المفاهيم والأفكار الخاطئة كظاهرة الإرهاب والتطرف يمتدّ (ليجرح) جوانب أخرى في (الجسم) الإسلامي بدعوى المعالجة مما يستفز!! المسلمين، وهو بذلك يقدم رصيلاً جيداً للفكر المتطرف، فحين يتم طرح قضايا إسلامية معروفة وصحيحة من خلال ما تقدم على أنها فكر متطرف أو إرهابي!! ولا يتم التفريق بين أصل الفكرة واستغلال الفكر الإرهابي لها فإن الأمر يختلط على متلقي الخطاب، وهذا لا يخدم المعالجة الحقيقية للفكر للمفاهيم والأفكار الخاطئة بل يدفع ببعض المسلمين إلى تصوير المواجهة مع هذه المفاهيم الأفكار على أنها مواجهة مع الإسلام، وهذا أقصى ما يحتاجه أصحاب تلك الأفكار حين ينقل المواجهة معهم إلى المواجهة مع الإسلام أو مع عامة المسلمين، خاصة وأن هذا الفكر يدّعي أنه يستمدّ مشروعيته من النصوص الشرعية الدالة على أفعاله، و يفسرها وفقاً لرؤيته الضيقة غير مكترث بآراء العلماء الشرعيين ممن سبق أو من هو معاصر، بل يتعامل مع النصوص الشرعية تعاملًا انتقائياً، ولذا فإن مواجهة الفكر المفاهيم والأفكار المنحرفة لا تتم إلا بفكر إسلامي شرعي يدحض أخطاء تلك المفاهيم والأفكار.

إذا كانت مفاهيم وأفكار الإرهاب تحتاج إلى بيان وعلاج من الخطاب الإسلامي، فإن هناك مفاهيم عدة تحتاج إلى معالجة كذلك، إذا أدى الخلط بين حقيقة هذه المفاهيم ودلالاتها الشرعية واستخدامها الوظيفي ومسيرتها التاريخية وما اصطلحت

عليه الأمة الإسلامية خلال عصورها على تطبيق هذه المفاهيم والنصوص - أدى خلطها - بالفهم الضيق والمحدود والمخالف لحقيقتها إلى إيجاد واقع مشوش ومضطرب لدى كثير من المسلمين خاصة حين وصلت الهجمة الشرسة على الإسلام إلى المطالبة بحذف هذه المفاهيم من مناهج التعليم وبرامج الإرشاد والتوعية والإعلام في بلاد المسلمين، ووقع كثير منهم في حيرة بين النصوص الشرعية والتاريخ الإسلامي المليء بتطبيقات هذه النصوص وبين واقعه الذي يطالبه بنذ هذه النصوص من قبل المخالفين والحاقدين على الإسلام أو قبولها بتصورها وفهمها الخاطيء، ومن هنا بدأ واضحاً مدى حاجة المسلمين إلى خطاب إسلامي يحرر هذه المفاهيم، ويبين حقيقتها حتى لا تضيع بين إفراط وتفريط، ومن أبرز هذه المفاهيم مفهوم الجهاد إذ تمّ الاستخدام الخاطئ لمصطلح الجهاد من قبل مجموعات العنف والتطرف والإرهاب و أطلقوا على عملياتهم الإرهابية وصف بالجهاد. و قد رددت كثير من وسائل الإعلام الغربية هذا المصطلح الذي أصبح مرادفاً للإرهاب في الفكر الغربي على الرغم من الفرق الهائل بين الجهاد والإرهاب، و قد أطلقت بعض وسائل الإعلام من إذاعات و تلفزيونات - العنان - لبعض متبني الفكر الإرهابي للحديث عن أفكارهم باعتبارها جهاداً، و أطلّ علينا بعضهم من خلال شاشات التلفزيون ليتحدث عن الجهاد ضد الكفار أو الغرب أو الأنظمة الحاكمة !! في خلط متعمد للمفاهيم حتى يلبس فكره لباساً شرعياً، وتم وصف ذلك باعتباره خطاباً إسلامياً يمثل عامة المسلمين !! ، مما أوجب تحرير مفهوم الجهاد و العودة به إلى أصله الشرعي الذي لا يستطيع أحد أن ينكره أو يتجاوزها لما قامت عليه الأدلة الشرعية، و لذا فإن الخطاب الإسلامي الحق مطالب بتقديم مفهوم الجهاد بحقيقته من خلال ما يقدّم من ما يطرحه في وسائل التعبير المختلفة حتى يحمي المصطلح من استغلال الإرهابيين و المتطرفين والمترصدين للإسلام وأهله .

و مثل ذلك مفهوم الولاء و البراء الذي بنى عليه المتطرفون أحكامهم و قاموا بتنفيذ جرائمهم حين حكموا بأن الولاء للإسلام يعني الولاء لهم، و البراء يعني البراء من سواهم لأنهم يمثلون الفرقة الناجية !! أو جماعة الحق أو الفئة المنصورة، أو غيرها مما يثبته من أفكار معتمدين على بعض المفاهيم و من بينها مفهوم الولاء و البراء للدلالة

على صواب ما هم عليه، و مستثمرين رغبة عامة المسلمين في الالتزام الصحيح بدينهم خاصة في وقت يشعرون فيه أن هذا الدين مهدد من أطراف كثيرة تجعلهم يحيطون بالإسلام للدفاع عنه و التمسك بمبادئه، وهنا لا بد من إبراز هذه المفاهيم بصورة صحيحة تجعل المسلم ملتزماً بدينه و بعيداً عن تأثير الفكر المتطرف.

و يأتي مفهوم التكفير ملازماً لمفهوم الولاء و البراء، إذ الحكم بكفر إنسان يبيح ماله و دمه و عرضه، و هذا ما سعى الفكر المتطرف إلى بثّه من خلال ما يعرضه من أفكار بوسائله المختلفة، و يرتب على ذلك حلّ و مشروعية ما يقوم به من أعمال إرهابية، إذ الحكم بالكفر على فرد أو طائفة أو دولة أو جماعة أو نظام يجعله هدفاً مشروعاً للإرهابيين، فالتكفير مقدمة لما يتبعه من خطوات، و قد نجح بعض المتطرفين في إشاعة مفهوم التكفير بين أتباعهم مما جعلهم مهينين للقيام بالعمليات الإرهابية، وهنا يأتي دور الخطاب الإسلامي في المعالجة الفكرية لهذا المفهوم حتى يتمّ قطع الطرق على المشروعية التي يتدثر بها الإرهابيون في أعمالهم. أما مفهوم (الآخر) و خاصة الغرب فهو أكثر المصطلحات الفكرية تداولاً في الخطاب السائد بين المسلمين، إلا أنه لا يتم التعامل مع هذا المفهوم بصورة واضحة إذ مازالت المعالجات لمفهوم (الآخر) غير واضحة على الرغم من أهميتها، فبين رافض للتعامل مع (الآخر) رفضاً مطلقاً، وداعياً لـ (الدوبان) في الآخر و التبعية له، وقد استطاع كل طرف كسب مساحة لا بأس بها في تحديد الموقف من الآخر و دفعه للتصادم و المواجهة من خلال ما يبثه من خطاب تحريضي عدائي، أو خطاب تبعي لـ(الآخر) وقد استفاد كل طرف منهما من حالة العنف السائدة في بعض البلاد الإسلامية و خارجها، خاصة حين يكون أحد ضحايا هذا العنف من غير المسلمين، أو من الأجانب المقيمين في البلاد الإسلامية، كما يستثمر الفكر المتطرف جرائم (الآخر) التي يقوم بها في بعض البلدان الإسلامية كفلسطين و العراق و أفغانستان و الشيشان للدلالة على أن (الآخر) كل لا يتجزأ و أنه صورة واحدة من الجرائم التي لا يمكن التعامل معها إلا بالمواجهة مستثمراً عواطف المسلمين غير مميّز بين (الآخر) المسالم و الصديق ككثير من شعوب العالم و بين ما تقوم به بعض الأنظمة الغربية أو الشرقية من جرائم الاحتلال أو غيرها، و لذلك فإن

(الآخر) الذي يعرضه الفكر المتطرف هو (الآخر) العدو بكافة فئاته و أطيافه و أنه لا مجال للتعامل معه سوى العنف والقوة.

بل وصلت رؤيته (للآخر) البعيد إلى (الآخر) القريب فأصبح يمدّ بساط نظريته العدوانية التمييزية إلى بعض الفئات و الطوائف الإسلامية أو غير المسلمة التي تعيش داخل المجتمع المسلم، فحكم عليها بحكم (الآخر) العدو، فأباح دمها و أموالها و أعراضها، و لذا وجدنا كثيراً من العمليات الإرهابية توجه إلى بعض المسلمين أو المواطنين من غير المسلمين.

إن هذه المفاهيم التي يتمّ بناء أحكام عليها بحاجة إلى تحرير و دراسة و عرض و تحليل، وتوظّف نتائجها في خطاب إسلامي متوازن يحرر المفاهيم من التشويه و الانحراف أو الاستغلال.

### ١٣. التواصل مع الآخر:

يهدف الخطاب الإسلامي إلى التواصل مع الآخر، فالآخر يشكل حضوراً دائماً في حياة البشر، فمنذ بداية البشرية و اختلاف الناس في أديانهم و مذاهبهم و أفكارهم و أجناسهم و ألوانهم، تساءل بعضهم عن بعض، فاختلف التنوع طبيعة بشرية خلقها الله، و هي أمر حتمي لا يمكن تجاوزه أو تجاهله، فقد ذكرت الآيات هذا الاختلاف في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ قال تعالى: " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ " سورة البقرة - الآية ٢٥٣

وقال تعالى " وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ " سورة يونس - الآية ١٩

و إذا كان الله سبحانه و تعالى قد شرع هذه الحقيقة باختلاف الناس فإن من الطبيعي أن يبحث كل واحد عن الآخر لدوام العلاقة و المصالح بينهم، فالاختلاف وحده ليس



مسبباً للعداء، كما أنه ليس سبباً للاتفاق، و من هنا كان البحث عن الآخر سمة بشرية لازمت الوجود الإنساني، وتأثرت بالعلاقة بين البشر قوةً و ضعفاً، إذ يرتفع الحديث عن الآخر كلما نشأت مشكلة أو قضية أو عداء معه، ذلك أن حالة السلم و العلاقات السلمية بين البشر لا تدفع بالإنسان للتعرف على الآخر إلا وفقاً لما تحققه مصالحه المشتركة معه، أما إذا سادت حالة الخلاف و العداء فإن الحاجة تزداد لمعرفة الآخر في كافة جوانبه لدراسة تلك الجوانب و معرفة نقاط القوة و الضعف فيها وإمكانية الاستفادة منها و استغلالها لمواجهة الآخر.

و إذا كانت الشواهد التاريخية كثيرة فإن السنوات الأخيرة أبرزت أهمية الخطاب الإسلامي المتوازن في التواصل و الحوار مع الآخر بصورة واضحة جلية، مستفيدة من التواصل البشري الذي يسرته وسائل الاتصال و المعرفة و التقانة؛ حيث ازداد اهتمام العالم بدراسة الآخر سواء كان الآخر القريب أم البعيد، و سواء سادت العلاقة الجيدة معه أم ساءت هذه العلاقة، وقد ساعد على هذا الاهتمام تلك التحولات التي شهدها العالم و مازال من خلال الأحداث التي مرت بها البشرية خلال العقد الأخيرين، فقد اتجهت كافة الشعوب و الاتجاهات و الأفكار لتدرس حالة الآخر، وقد كان الإسلام و المسلمين أكثر ميادين الدراسة - خاصة من مراكز الدراسات و البحوث و مراكز اتخاذ القرار في الدول الغربية - فتمت دراسة الإسلام كدين والشعوب الإسلامية بمعتقداتها وعاداتها وسلوكها وقيمها ورؤيتها للآخر غير المسلم، وغير ذلك من الجوانب المختلفة في الآخر المسلم، في حالة من البحث لم يشهدا العالم من قبل حتى مع حركة الاستشراق، لكن معظم هذه الدراسات والبحوث تأثرت بالمرحلة التاريخية التي تعيشها كما تأثرت بالأحداث والمتغيرات التي أسهم في رسمها وسائل الإعلام والتربية الخاطئة والموروث التاريخي من العداء بين المسلمين والغرب، و لذلك جاءت معظم نتائج هذه الدراسات بعيدة عن النتائج العلمية المنصفة أو الحقائق الواقعية، بل جاءت متحيزة وغير موضوعية.

وفي الجانب الآخر - وهو الجانب الإسلامي - اتخذ المسلمون موقف الدفاع والتبرير لما يطلقه الآخر نحوهم، فجاءت معظم الدراسات شارحة أو مدافعة أو مبررة لتلك التهم التي يلقيها الآخر غير الإسلامي.

ولعل أخطر ما واجهه الجانب الإسلامي هو اتهامه بالرؤية العدوانية تجاه الآخر (غير المسلم) من خلال تكوين الشخصية المسلمة وتربيتها على رفض الآخر بل عدائه ومحاربه، واتجهت أصابع الاتهام إلى الخطاب الإسلامي السائد في البلاد الإسلامية، خاصة في مؤسسات التوجيه الديني ومناهج التعليم في البلاد الإسلامية حيث اتهمت بأنها السبب الأساسي في تكوين العقلية المهينة لما يسمى بالإرهاب أو العنف أو التعصب ضد الآخر.

ولذلك فإن الخطاب الإسلامي هو الخطاب المتوازن والمتنزه بالمنهج الذي أمر الله سبحانه وتعالى به فقال " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " سورة النحل - الآية ١٢٥

وقوله تعالى " وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " سورة العنكبوت - الآية ٤٦

فالحكمة والموعظة الحسنة هي الأسلوب الأمثل في مجادلة وحوار الآخرين، لأن الحوار هو المنهج الطبيعي في العلاقة بين البشر، وهو التعبير الحضاري عن التواصل بينهم، خاصة حين يتم بين فئات ترتبط بعلاقة طبيعية تمكنهم من التعايش بسلام على الرغم من أسباب الاختلاف بينهم، لأنهم بذلك يعبرون عن رؤية مشتركة لهذا التعايش، بل يحولون الاختلاف إلى ميدان للتنوع الثقافي والفكري، وفي ذلك إثراء للحياة للبشرية.

فقد خلق الله سبحانه وتعالى البشر مختلفين في صورهم وألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وأديانهم وأفكارهم، مصداقاً لقوله تعالى: " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " سورة هود - الآية ١١٨

وإذا كان الاختلاف أمراً طبيعياً فالحوار هو الوسيلة لتنظيم هذه العلاقة بين الناس، فالاختلاف ليس سبباً للعداوة، ولو كان الأمر كذلك لعاشت البشرية في شقاق وقتال عبر تاريخها الطويل، إذ تشير الدلائل إلى أن حالة التعايش هي الحالة الطبيعية للعلاقة بين الناس وأن العداوة كانت تنشأ - بينهم - لأسباب عارضة إما لعدوان أو ظلم أو بغي أو أكل لأموال الناس بالباطل أو تجاوز في الحقوق أو احتلال للأرض أو سلب لحريات الناس أو غير ذلك من أسباب العداوة التي لا تنتهي بانتهاء أسبابها.

والحوار قيمة حضارية تميزت بها حضارات الأمم عبر تاريخها الطويل، إذ أن التواصل بين الحوارات والاستفادة مما عند الآخر كان هو السمة التي برزت بها حضارات عالمية ما زالت آثارها ممتدة إلى اليوم، وقد تم وصف الحضارات بالإنسانية لما كانت تتصف به من هذا السلوك الحضاري، إذ التفاعل بين الحضارات هو الأساس في نشأتها وبنائها، ولا يمكن لحضارة أن تزعم أنها خالصة من ذلك، فقد أخذت كل حضارة ممن سبقها وأعطت لمن جاء بعدها، وكان الحوار والتواصل هو الباب الذي ولج منه التفاعل الحضاري.

" لقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس التفاعل الحضاري، فهي لهذه الخاصية ثقافة حوار في المقام الأول، أخذت عن الحضارات السابقة، واقتبست من ثقافات الأمم والشعوب التي احتكت بها، وصهرت هذا كله في بوتقة التفاعل الحضاري، فكانت حضارة الإسلام، ولا تزال، مثلاً نادراً للتفاعل بين الحضارات.

ولقد كان لحيوية الحضارة الإسلامية وقوتها الذاتية الدافعة لها إلى التطور والتقدم والإبداع، الأثر القوي في نقل روح المدنية إلى العالم الغربي، وهو الأمر الذي يعترف به ويشهد له معظم الكتاب والمؤرخين والمفكرين الأوروبيين الذين برئوا من الهوى والغرض، وكتبوا بإنصاف عن خاصية التفاعل الحضاري في الحضارة الإسلامية<sup>37</sup>.

والحوار في الخطاب الإسلامي يسعى إلى التعارف والتعايش مع آخر قال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ " سورة الحجرات - الآية ١٣

<sup>37</sup> الحوار من أجل التعايش - د. عبدالعزيز بن عثمان التويجري ص ١٦.

وتحتاج البشرية - اليوم - إلى التعايش والتفاهم بينها حتى تستطيع حل مشكلاتها، سواء كانت هذه المشكلات في طبيعة العلاقة بين أفرادها وتجمعاتها أم كان التفاهم من أجل مواجهة المشكلات المشتركة كمشكلات الطبيعة والكوارث والحروب، و إذا لم يتمكن الناس من ذلك فلا أقل من التفاهم على قواسم مشتركة وهي احتفاظ كل طرف بحقوقه دون التجاوز على حقوق الآخرين، وقد ذكر القرآن ذلك بقوله تعالى : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا "سورة آل عمران - الآية ٦٤ :

لكن الحوار يشترط الاعتراف بالآخر، إذ أن رفض الآخر أو تجاهله أو الاستعلاء عليه يجعل الحوار معه غير متكافئ، أو يجعله حواراً من طرف واحد، والاعتراف بالآخر يقتضي قبوله على الرغم من الاختلاف معه.

واعترافنا بالآخر يعني اعترافنا بالاختلاف معه وتلك سنة من سنن الله عز وجل، يقول تعالى : " وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ " سورة الروم - الآية ٢٢

والحوار يكون في القضايا الإنسانية - غالباً - وهي التي توجب العمل المشترك والاتفاق بين الناس عليها، أما القضايا الدينية فإن البشر لا يمكن أن تتطابق آراؤهم وعقائدهم، وقد حدّد الإسلام المنهج في ذلك بقوله تعالى : " لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ " سورة الكافرون - الآية ٦

ويقول تعالى : " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " سورة المائدة - الآية ٤٨

والحوار يقتضي التعامل بالحسنى والرفق واحترام الآخرين، وعدم التعرض لهم، وقد مر الله سبحانه و تعالى بالأسلوب الحسن في التعامل مع الناس فقال تعالى : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " سورة البقرة الآية - ٨٣ .

قال ابن كثير في تفسير الآية : "أي كلموهم طيبا ولينوا لهم جانبا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف ، كما قال الحسن البصري وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بالمعروف ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً كما قال الله تعالى وهو كل خلق حسن رضيه الله، بعد أن أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي"<sup>٣٨</sup>

وقال تعالى : " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ " سورة فصلت - الآية ٣٤

وقد أمر الرسول صلى الله عليه و سلم بالرفق في كل شيء فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف " .<sup>٣٩</sup>

وقال عليه الصلاة و السلام لعائشة رضي الله عنها : "يا عائشة إرفقي فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه ولا نزع من شيء قط إلا شانه"<sup>٤٠</sup>.

والحوار يقتضي العدل في العلاقة مع الآخرين وهو أمر مهم لاستقرار الحياة و التعايش بين البشر، إذ لا يمكن تحقيق التعايش والحوار الناجح مع ظلم الآخر والإسلام لا ينظر إلى العدل كمحصلة ذاتية، أو مسألة داخلية بحيث يكون العدل قائماً على المصالح التي يكسبها المسلمون من علاقاتهم بالآخرين، أو أن يكون العدل بين المسلمين أنفسهم، وما عداهم فلا عدل لهم، بل العدل في الإسلام مسألة شاملة للمسلمين ولغيرهم، للصديق منهم والعدو، لمن يوافقنا الرأي أو يخالفنا، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على هذه المعاني التي يجب أن تقوم الحياة البشرية عليها حتى تستطيع أن تكون حياة

38 تفسير ابن كثير.

39 رواه الإمام أحمد في مسنده.

40 رواه أبو داود في سننه .

سعيدة لا ظلم فيها ولا عدوان، فيأمر المؤمنين- باعتبارهم المخاطبين به - فيقول تعالى: "يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا كُوْنُوْا قَوّٰمِيْنَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلٰى اَنْفُسِكُمْ اَوْ اِلْوَالِدِيْنَ وَالْاَقْرَبِيْنَ اِنْ يَكُنْ غَنِيًّا اَوْ فَقِيْرًا فَاَللّٰهُ اَوْلٰى بِهَمَّآ فَلَا تَتَّبِعُوْا الْهَوٰى اَنْ تَعْدِلُوْا وَاِنْ تَلُوْا اَوْ تُعْرَضُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرًا " سورة النساء- الآية ١٣٥

ولم يكن الخطاب القرآني ليتوقف عند قضية واحدة من قضايا العدل، كالعدل مع الآخر وإنما جاء الخطاب شاملاً بحيث لصبح العدل حالة دائمة في المجتمع الإنساني، ووفقاً لهذا التوجيه الرباني فإن الخطاب الإسلامي يجب أن يتصف بالعدل في موقفه من الآخرين.

#### ١٤. تأصيل المفاهيم الحديثة :

تشيع بين فترة و أخرى مفاهيم جديدة أو مفاهيم قديمة لكن يتم طرحها بصورة حديثة قد تتفق مع مضمونها القديم وقد تختلف عنه، وقد يراد لها أن تعطي دلالات جديدة يهدف مطلقوها إلى تحقيق أغراض خاصة، ولعل من أبرز المفاهيم التي يتم تداولها، التسامح والسلام والحرية والمساواة والمواطنة والعدالة وغيرها من المصطلحات التي يكثر تداولها وتحتاج إلى دراسة وتمحيص وتفنييد، أو تأصيل وتأسيس، وهذا ما يقوم الخطاب الإسلامي به، حين يراجع هذه المفاهيم ويدرس مدى ملائمتها للمشروعية الإسلامية أو الفكر الإسلامي، فمفهوم التسامح، يعد من المفاهيم الإسلامية الأصيلة، لكن لا يتم عرضه كذلك بل يعرض باعتباره من المفاهيم التي جاءت بها المدنية، فقد دعا الإسلام إلى ذلك فقال تعالى : "وَدَّ كَثِيْرٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوْنَكُمْ مِنْۢ بَعْدِ اِيْمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِنْۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاَعْفُوْا وَاَصْفَحُوْا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِاَمْرِهٖ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ" سورة البقرة - الآية ١٠٩

وقال تعالى " وَليَعْفُوْا وَلِيَصْفَحُوْا اَلَا تُحِبُّوْنَ اَنْ يَّعْفِرَ اللّٰهُ لَكُمْ وَاللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ " سورة النور الآية ٢٢

فالإسلام ينظر إلى التسامح باعتباره يمثل أعلى مراتب القوة لا الضعف كما يتصوره الناس، فالمتسامح يتقوى على دوافع الانتقام والحقد والحسد، وهي صفات ملازمة

للنفس البشرية، فإذا تسامح الإنسان تجاوز تلك الصفات السلبية وأبدلها بمعنى سام ينقله من موقف العداة إلى موقف الصداقة، ومن يقرأ في نصوصنا الشرعية وتاريخنا الإسلامي يجد صوراً ناصعة لهذه الفضيلة، وفي مقدمتها النموذج الأمثل للتسامح، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان إمام المتسامحين.

والتسامح يمثل إحدى الفضائل بين طرفين، بين التشدد والتزمت والغلو من جهة والتساهل وترك الحقوق من ناحية أخرى، فهو مع إقراره بالحق إلا أنه يتسامى فوق رغبة الانتقام ويتنازل عن حقه أو يعفو عن أخطأ في حقه.

ومن هنا تأتي أهمية التربية على ثقافة التسامح باعتبارها قيمة خلقية إسلامية، وذلك متوقف على التربية الملائمة التي تنمي في المسلمين هذه الفضيلة.

لقد جاء في إعلان اليونسكو حول التسامح الصادر في أكتوبر ١٩٩٥ بباريس أن " التسامح قيمة أخلاقية وسياسية ودينية وقانونية أساسها المبادئ الأساسية لحقوق الإنسان وفي مقدمتها التعددية واحترام المعتقد والرأي والعدل قائمة على مبدأ الانسجام في الاختلاف، تهدف إلى تحقيق السلم والأمن والتقدم الاقتصادي الاجتماعي للأفراد والشعوب "

ومثل مفهوم التسامح يأتي مفهوم السلام، فقد دعا الإسلام إلى السلام انصياعاً لقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ " سورة البقرة الآية ٢٠٨

والإسلام ينظر إلى السلام بمفهومه الشامل، بدءاً من سلام الإنسان مع نفسه ثم مع المحيط الصغير من حوله وهم أسرته، فالجتمع من حوله انتهاءً بالسلام مع الآخر شعوباً ودولاً، وذلك ما يصطلح عليه بالسلام العالمي، لكن السلام في الإسلام لا يعني التنازل عن الحقوق المسلوبة أو عدم رد العدوان، بل يعني أن يعيش الإنسان في حالة سلام دائم مع المحيط من حوله، ولإقرار هذا السلام فإنه يحتاج إلى أن يسترجع حقوقه العامة كاحتلال الأوطان وتشريد الشعوب، فذلك مناقض لثقافة السلام التي تقتضي استرجاع هذه الحقوق حتى يعيش الناس كافة في سلام. وقد دعا الإسلام إلى ذلك وفرّق بين أولئك الذين يعتدون علينا و الذين يجب أن نعيش معهم في سلام، فقال

تعالى : " لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " سورة الممتحنة الآية ٨

ويأتي مفهوم المساواة كنموذج ثالث للمفاهيم الشائعة بتصورها الحديث، حيث يقدم - في كثير من الأحيان - كمفهوم عام للمساواة بين الرجل و المرأة بالتصور الغربي، لكن رؤية الإسلام لمفهوم المساواة أعم و أشمل، فقد دعا الإسلام إلى المساواة بين البشر على الرغم من تميز المسلمين بعقيدتهم ودينهم، إلا أن ذلك لم يمنعهم من إشاعة روح المساواة مع بقية البشر، لأنهم يعلمون أنهم ينتمون إلى جنس واحد، قال تعالى : "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " سورة النساء الآية ١

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لأعجمي على عربي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى" <sup>٤١</sup>

وقال عليه الصلاة والسلام : " كلكم بنو آدم و آدم من تراب، و لينتهين قوم يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان " <sup>٤٢</sup>.

وعن زيد بن أرقم قال : "كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول في دبر صلاته اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك قال إبراهيم مرتين ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصا لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب الله الأكبر الأكبر الله نور السماوات والأرض الله الأكبر الأكبر حسبي الله ونعم الوكيل الله الأكبر الأكبر" <sup>٤٣</sup>.

فالإسلام لا ينظر إلى أسباب الاختلاف بين الناس بسبب من أو عرق أو لون أو لغة أو جنس، إذ يتساوى الجميع في الحقوق والواجبات، إن المساواة أمان للمجتمع

41 أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

42 ذكره الألويسي في روح المعاني ج ٢٦ ص ١٦٤.

43 رواه الإمام أحمد في مسنده و النسائي في سننه .



واستقرار له لأن الإنسان حين يشعر بأنه متساوٍ مع غيره وأنه يلتزم بالواجبات التي عليه ويأخذ حقوقه كاملة، فإن ذلك يقطع عنده شهوة الحقد أو الحسد أو الانتقام من الذين يتميزون عنه سواء كان ذلك التميز قائماً على أسباب مادية كالفقر والغنى و المكانة الاجتماعية أو قائماً على أسباب لا دخل لها فيها كانتسابه لعشيرة أو قبيلة أو اختلافه بالانتماء إلى عرق أو جنس يختلف عن الآخرين، لقد عاشت البشرية فترة من الصراعات بسبب هذه الخلافات فيما يسمى بالصراع الطبقي في الفكر الشيوعي، التي أدخلت كثيراً من مجتمعات العالم في اضطراب اجتماعي.

ويمثل مفهوم المواطنة نموذجاً للمفاهيم الحديثة التي تحتاج إلى دراسة وتأصيل من الخطاب الإسلامي فمصطلح المواطنة من المصطلحات الجديدة التي سادت العالم في العقود الأخيرة، وخاصة بعد قيام الدول الوطنية وتحديدًا بعد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، إلا أن الفكرة لم تكن جديدة وإن لم تحمل هذا المصطلح فقد كان الناس ينتمون إلى مجتمعات وبلدان وأقاليم وينتسبون إليها، وقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم حين دخل المدينة ميثاقاً بين مواطنيها من المسلمين (المهاجرين والأنصار بكافة قبائلهم) و اليهود (بكافة قبائلهم كذلك) وقد سمى الباحثون هذا العهد أو العقد بميثاق المدينة الذي حدد الحقوق والواجبات لكافة المواطنين مما يشكل نموذجاً متميزاً ومتقدماً لفكرة المواطنة أو العقد الاجتماعي.

إن المواطنة تعني الانتماء إلى دولة لها قوانينها و أنظمتها بحيث يخضع جميع مواطنيها إلى هذا القانون ويكونون أكثر التزاماً به من غير المواطنين الذين تنظم شؤونهم - كذلك - وفقاً لقوانين هذه الدولة، إن التزام المواطن بشروط المواطنة يقتضي منه أن يفهم قوانين وطنه وأن يتعامل معها خاصة فيما يربط بينه وبين مواطنيه الآخرين، فهو لا يعيش في جزيرة معزولة، كما أن المواطنة ليست مادة مكتسبة بل هي شعور بالانتماء ينشأ مع الإنسان بمؤثرات كثيرة، إن مفهوم المواطنة لم يحظ بعد باهتمام الخطاب الإسلامي وعنايته.

## النتائج والتوصيات:

١٣. الخطاب الإسلامي هو المعبر عن حال المسلمين قوةً وضعفاً، ولذلك لا بد من العناية بهذا الخطاب وتطويره من خلال الدراسات والبحوث بما يحقق الأهداف المرجوة منه.
١٤. المرجعية الشرعية هي الأساس الذي يجب أن يقوم عليه الخطاب الإسلامي، إذ أنه يتميز عن غيره من الخطابات بهذه المرجعية التي تحقق له سلامة الهدف ونبيل الغاية.
١٥. الخطاب الإسلامي خطاب عقدي ينطلق من التعريف بالعميقة وحمائيتها والدفاع عنها، ولذلك لا بد أن يكون للعميقة دور مؤثر في هذا الخطاب.
١٦. الخطاب الإسلامي خطاب إنساني، أي معبر عن فهم المسلمين للنصوص والأحكام الشرعية، وهو بهذه الصفة ليس خطاباً معصوماً أو مقدساً، بل لابد من النظر إليه باعتباره فكراً إنسانياً قابل للخطأ والإصابة ولذلك لابد من مراجعته و تقويمه.
١٧. تقتضي الواقعية أن يتعامل الخطاب الإسلامي مع الواقع بكل مكوناته، وأن لا يحمل المتلقي له إلى عالم المثاليات والكمال الذي لا يمكن تحقيقه، لأنه بذلك يتسبب في إحباط المسلمين وتواكلهم ، بل لابد أن يقدم حلولاً لمشكلات الواقع الذي يعيشه المسلمون.
١٨. الدعوة إلى الإسلام هي الهدف الذي يعمل له الخطاب الإسلام، وبغير هذا الهدف يصبح شأنه شأن بقية الخطابات الإنسانية، لذلك لا بد أن تكون الدعوة الإسلامية حاضرة في هذا الخطاب.
١٩. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي، ويمكن للخطاب الإسلامي أن يقوم بدور كبير في ذلك ، وبأساليب تتناسب مع التطور الذي تشهده الحياة الإنسانية.
٢٠. الخطاب الإسلامي خطاب أخلاقي، يدعو للفضيلة والخير، ولذا فإن هدف المحافظة على الأخلاق ونشر الفضيلة يجب أن يأخذ مكاناً واضحاً في الخطاب الإسلامي.

٢١. يمثل الدور المستقبلي للأمم حالة من الشهود الحضاري من خلال مشاركتها مع الآخرين في صنع الحضارة الإنسانية القائمة على العدل والحق والخير والفضيلة.
٢٢. انتشرت بين المسلمين ظاهرة الانحراف الفكري من خلال تحريف المفاهيم الإسلامية واستغلالها لأغراض شتى، ولذا فعلى الخطاب الإسلامي تحرير هذه المفاهيم مما لحق بها من تشويه لتأخذ دورها في بناء الإنسان المسلم.
٢٣. الخطاب الإسلامي هو الوسيلة المثلى للتواصل مع الآخر، من أجل التعريف بالإسلام ودفع الشبهات التي تلحق به، والتعايش بين البشر وحل المشكلات المشتركة بينهم.
٢٤. يتم طرح مفاهيم حديثة بين فترة وأخرى، وهذه المفاهيم تحتاج إلى تأصيل ومراجعة حتى لا تنحرف عن أهدافها، وحتى لا يتم استخدامها استخداماً خاطئاً، ويمكن للخطاب الإسلامي أن يقوم بتأصيل هذه المفاهيم من خلال عرضها على الأحكام الشرعية وبيان قربها أو بعدها من الإسلام، وإمكانية الاستفادة منها.

## المراجع :

- ١ . الإحكام في أصول الأحكام - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٠م.
- ٢ . الأدب المفرد - أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري - وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية - الإمارات - ١٤٠١ - ١٩٨١م.
- ٣ . الأسس الأخلاقية - أبو الأعلى المودودي - دار الاعتصام - القاهرة.
- ٤ . إنسانية الثقافة الإسلامية - د. عدنان زورور - المكتب الإسلامي - بيروت ط ١ - ١٤٠٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٥ . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية - دار الكتاب الجديد - بيروت ط ١ ١٣٥٩ هـ - ١٩٧٦م.
- ٦ . بذل المجهود في حل سنن أبي داوود - دار إحياء السنة النبوية - بيروت.
- ٧ . البحر المحيط - بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي - وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية - الكويت ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.
- ٨ . تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل - أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمد النسفي - دار إحياء التراث - بيروت.
- ٩ . تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن كثير - دار المعرفة - بيروت ١٣ - ٢ هـ - ١٩٨٢م.
- ١٠ . تفسير الجلالين - جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي - مكتبة الجمهورية - القاهرة.
- ١١ . الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي - دار إحياء التراث العربي بيروت - ١٩٩٥م.
- ١٢ . جامع البيان في تأويل القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة ط ٣ ١٣٨٨ هـ - ١٩٧٨م.
- ١٣ . الجامع الصحيح - محمد بن عيسى الترمذي - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٩٥م.

- ١٤ . الجامع الصحيح - مسلم بن الحجاج - دار صاد - بيروت \_ ٢٠٠٤ م.
- ١٥ . الحوار من أجل التعايش - عبدالعزيز بن عثمان التويجري - دار الشروق ط ١  
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- ١٦ . خصائص التشريع الإسلامي - محمد فتحي - مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ١٧ . الخصائص العامة للإسلام - د. يوسف القرضاوي مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢  
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
- ١٨ . الخطاب الإسلامي - تطوير أم استئصال - نبيل شبيب -  
<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/B3A8D37F-8A42-4020-93C9-70BFC93A20EC.htm>
- ١٩ . الخطاب الإسلامي الحضاري - د. فتحي ملكاوي - مجلة الكلمة - العدد ١٢  
١٩٩٦/١٤١٧ هـ.
- ٢٠ . الخطاب الإسلامي و التجديد .. الماهية و الإشكالات - وسام عبد المجيد -  
[http://www.libyaforum.org/index.php?option=com\\_content&task=view&id=2152&Itemid=215](http://www.libyaforum.org/index.php?option=com_content&task=view&id=2152&Itemid=215)
- ٢١ . روح البيان - اسماعيل حقي البرسوي - دار إحياء التراث - بيروت .
- ٢٢ . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني - أبو الفضل شهاب الدين  
الألوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٣ . الظاهرة القرآنية - مالك بن نبي ص - دار الفكر - بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- ٢٤ . العبودية لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية - المكتب الإسلامي - بيروت ط ٢  
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.
- ٢٥ . لسان العرب - أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم بن منظور - دار صاد -  
بيروت.
- ٢٦ . لمحات من الثقافة الإسلامية - د. عمر عودة الخطيب مؤسسة الرسالة - بيروت -  
ط ٣ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- ٢٧ . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسي - رئاسة المحاكم  
الشرعية - قكر ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٢٨. مسند الإمام أحمد - المكتب الإسلامي - ط ٢ ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
٢٩. مقدمة في علم التفاوض - حسن وجيه - سلسلة عالم المعرفة رقم ١٩٠ - المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون ، الكويت ١٩٩٥ م.
٣٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر للعسقلاني - دار ابن حيان - ١٩٩٥ م .
٣١. فقه التحضر الإسلامي - د. عبد الحميد النجار - دار الغرب الإسلامي - بيروت .
٣٢. الهادي في اللغة العربية - حسن سعيد الكرمي - دار لبنان للطباعة و النشر - ط ١ ١٩٩١ م - ١٤١١ هـ .
٣٣. الكليات - أبو البقاء الكفوي - طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٢ م .